أولادنا

كريم الدين البغدادى



بقلم

محمد فريد أبو حديد

دار المعارف

كريم الدين البغدادي

أولادنا

(٣)

كريم الدين البغدادي

بقلم: محمد فريد أبو حديد

الطبعة التاسعة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

١

كانت «بغداد» على عادتها تموج بالألوف والألوف من سكانها ومن التجار الوافدين عليها من أطراف الأرض، وطلبة العلم الذين أتوْا من أقاصى الهند والصين ليقضوا مآربهم فى عاصمة العالم الكبرى.

وكانت قصورها العظيمة تُطلّ على نهر دجلة من جانبيه الشرقى والغربى، وتنعكس أنوارها الساطعة فى الليل على صفحة الماء، وتتردد منها أنغام الأغانى يحملها الهواء إلى الحقول البعيدة حيث كان المساكين من أهل المدينة يعيشون فى أكواخهم الصغيرة المتهدمة.

وكان «كريم الدين» فتى يتيمًا، مات أبوه فى صغره، ثم ماتت أمه، وتركته يعيش مع خالته العجوز فى منزل صغير متهدّم فى طرف من أطراف «الرصافة». وكان فى كل ليلة يأوى إلى مرقده فوق سطح المنزل، ينقل عينيه بين النوافذ البعيدة التى تتلألأ على الشاطئ الآخر، والهواء يحمل إليه مع هبَّاته أنغام الموسيقى وأصوات الجوارى البارعات فى الغناء، فيسرح به الفكر إلى تلك القصور وما فيها من نعيم، وتعود إلى ذهنه صور القصص التى كانت خالته تحكيها له عن أبيه وأمه. وما كانا ينعمان فيه من الغنى، ثم يتأمل حاله وما يعانيه من الشقاء فى حياته بعد موتهما، وذهاب الأموال التى خلفها أبوه المسكين الذى لم يره. مسكين ذلك الأب فإنه مات غريبًا فى أرض الهند، وضاعت تجارته، واستولى دائنوه ببغداد على ما خلف

من عقار، فلم يبق لأرملته وولده إلا ذلك البيت الصغير الذى فى طرف الرصافة.

وقد حاولت الأم الحزينة أن تجاهد فى الحياة لتربية ولدها، ولكنها ماتت بعد سنتين من وفاة زوجها، وأصبح كريم الدين وحيدًا لا مُعين له إلا تلك الخالة العجوز، فاضطرّ إلى أن يقطع دراسته لكى يجد عملاً يلتمس منه قوته وقوت خالته، ولكن الأبواب كانت مُوصدة أمامه. لم يكن يعرف صناعة يكتسب منها، وكان يتكبر أن يراه الناس أجيرًا فى الأسواق، أو عاملا فى الحقول، فلم يجد سوى عمل واحد كان يعود عليه بأجر ضئيل، وذلك أنه كان يذهب كل صباح إلى رجل ورّاق يبيع الكتب، فينسخ له الأوراق طول اليوم لقاء درهمين يشترى بهما من الطعام ما يُمسك الرمق.

ولكن كريم الدين كان يضيق بتلك الحياة، وكلما عاد إلى منزله فى الليل ورقد ناظرًا إلى النجوم المتلألئة، ونقل عينيه بين نوافذ القصور الساطعة، أحسّ أن الشقاء يخيم على قلبه. وكثيرًا ما حدثته نفسه بالهجرة من بغداد فى طلب الرزق، ولكن إلى أين يذهب؟

وكم حدثته نفسه بأن يقصد أصدقاء أبيه أو أقرباءه ليمدوا إليه يد المساعدة، ولكنه كان لا يلبث أن يُبعد هذه الفكرة، لأنه كثيرًا ما سمع من خالته ما يُبعده عن هؤلاء الأصدقاء وهؤلاء الأقرباء.

وكان وهو ينسخ الكتب يطلع على أخبار الشعراء والأدباء، وكيف كان الخلفاء والعظماء يجزلون لهم الجوائز، فحدثته نفسه أن يؤلف قصيدة يقصد بها باب بعض أعيان بغداد. فقضى أسبوعًا فى تأليف قصيدة، بدأها بشكوى الزمان على عادة الشعراء، ثم أخذ يذكر الفضائل واحدة بعد واحدة، وجعل يصف بها السيد العظيم «قيسون» صاحب القصر الكبير



المطلّ على نهر دجلة، فى الضفة الأخرى، حتى أتم خمسين بيتًا كتبها بخط بديع على ورقة مُذهَّبة، وطواها مسرورًا فى انتظار الصباح التالى.

وذهب فى الصباح إلى الشاطئ، ينظر قارب الشيخ «عبد السلام» النوتى، وهو رجل طيب القلب كان يسمح له بالعبور معه بغير أن يأخذ منه أجرًا. فلما رآه النوتى الشيخ رحَّب به وسأله عن حاله، فحياه كريم الدين وشكره، وعبر النهر معه، واتخذ سبيله إلى دار السيد قيسون. ولكنه ما كاد يقترب من الدار العظيمة حتى تصدّى له أحد الأتباع وفى يده سوط مخيف المنظر، فقال له: إلى أين يا فتى؟

فقال كريم الدين فى أدب: إلى دار سيدى قيسون.

فنظر إليه الرجل من أعلى رأسه إلى أسفل قدمه وقال له: وماذا تريد منه؟

فتردَّد كريم الدين واحمرّ وجهه، وكانت القصيدة فى جيبه فأخرجها ومدّ بها يده إلى الرجل قائلا: أريد أن...

ولم يتركه الرجل يُتم قوله، فخطف منه الورقة، ونظر فيها حينًا، ثم ضحك ضحكة عالية.

فأحس كريم الدين كأن قلبه سقط فى قدميه، ولم يجرؤ على الوقوف أمام الرجل، فأدار وجهه مسرعًا وسار مهرولا والدموع تغطى عينيه، حتى كان لا يرى الطريق التى يسير عليها، وتعثر مرارًا فى الحفر الكثيرة التى فى سبيله وهو ذاهل.

ولم ينتبه من ذهوله إلا على صوت يناديه، فرفع رأسه ونظر إلى الشخص الذى يناديه من أسفل الجسر، فإذا هو الشيخ عبد السلام

النوتى. فمسح دموعه بكفه وحياه بصوت مخنوق. فقال له الشيخ: ألا تريد العبور يا ولدى؟

فلم يجد كريم الدين جوابًا سوى أن قال: شكرًا لك يا عمى.

ودنا القارب خاليًا فنزل إليه، وجلس فى آخره بجوار الشيخ فقال له: مالى أراك حزينًا يا ولدى؟

فقال كريم الدين بصوت ضعيف: لست حزينًا يا عمى.

ولكنه لم يتمالك نفسه وانفجر بالبكاء. فأخذ الشيخ يمسح على رأسه بعطف، وسأله عن سبب حزنه، ولكنه لم يقدر على الإجابة لشدة بكائه.

فتناول الرجل وعاء ماء وغسل له وجهه، وأعطاه شربة ماء، ثم مد يده إلى جراب عنده فناوله بعض التمر، فأخذه كريم الدين شاكرًا، وأحس أن ألمه يخف من مواساة ذلك الشيخ الطيب.

فقال له الرجل بعد أن هدأ: لِمَ تحزن يا ولدى وأنت لاتزال صغيرًا؟ فانفتح مجال القول أمام كريم الدين وقال: إنى أشقى مَن فى بغداد يا عمى.

ثم أخذ يشكو للشيخ، ويصف له ما يقاسيه، حتى أخبره بما كان من تأليفه للقصيدة، وما فعله به ذلك الرجل القاسى تابع السيد قيسون.

فقال له الشيخ: أنت فتى شاب ولست تعجز عن العمل. ولكنك أخطأت الطريق يا ولدى، فليس قصد الأغنياء بالمدح سوى وسيلة الأدنياء. إنه جَرْىٌ وراء الفضلات كما تجرى الكلاب وتهز ذيولها وتتمسح بالأقدام فى طلب قطعة من العظام.

فقال كريم الدين فى خجل: ما دفعنى إلى ذلك سوى اليأس.

فقال الشيخ: ولمَ تيأس يا ولدى؟ تعالَ معى فإنى محتاج إلى مثلك ليساعدنى.

فصمت كريم الدين، وجعل يفكر فى نفسه، هل يرضى أن يراه الناس يعمل كل يوم فى قارب الشيخ النوتى؟

. وأدرك الرجل من صمته أنه متردد فقال له: إن الذى يعمل بعرق جبينه لا يشعر بالخجل.

فوقعت الكلمة وقعًا حسنًا فى نفسه، وأجاب مبتهجًا: أشكرك يا سيدى. ولكنى لا أعرف كيف أساعدك.

فقال الشيخ: سأعلمك ذلك فى زمن قصير. ولن يحتاج هذا العمل إلى تعليم طويل. وكان بعض العابرين قد أقبلوا نحو الشاطئ، فقال الشيخ: اجلس أنت إلى الدفة فهذا يسهل علىّ التجديف. ولا تُحرك هذه اليد إلا كما أقول لك: شمالا أو يمينًا.

بدأ كريم الدين من تلك الساعة عمله مع الشيخ النوتى الطيب القلب.

وما هو إلا قليل حتى شعر بالاطمئنان، عندما وجد أن الناس لا يلتفتون إليه. ولما عاد فى المساء إلى منزله كان منشرح الصدر سعيدًا، واشترى بالدراهم الخمسة التى ربحها فى يومه خبزًا وسمكًا وتمرًا، فأكل مع خالته وحدثها بما كان منه.

ولما أوى إلى مرقده نظر إلى النجوم المتلألئة فى السماء وإلى مياه النهر التى تنعكس عليها الأنوار الساطعة، ووجد أن الحياة ملأى بالجمال.

٢

صار كريم الدين يزداد حبًّا لعمله يومًا بعد يوم، وأصبح يرتاح إلى منظر الشمس وهى تغمر سطح النهر بشعاعها فى الصباح، ومنظر الحقول الخضراء، والبساتين المزدهرة، وماء دجلة المتدفق السريع. وكان يذهب كل يوم إلى الشاطئ بعد الفجر لينظف القارب، ويُعلق على جوانبه سعف النخيل، وأغصان النارنج والزيتون، وأعواد الزهر. وصار أهل بغداد يحبُّون العبور معه، وزاد رزقه ورزق الشيخ عبد السلام، وبدأ يحس أن الحياة تبتسم له.

وذهب على عادته يومًا فى الصباح الباكر إلى قاربه، وكان الصيف قد مضى أكثره، وبدأت طلائع فصل الخريف، فكان الهواء يهبّ باردًا من الشرق. فسمع صوتًا يناديه: صباح الخير يا كريم الدين.

وكان يعرف صاحب الصوت، فالتفت باسمًا إليه وقال: صباح الخير يا سيدى الحاج.

ثم وثب من القارب إلى الشاطئ ليساعد الحاج «خليفة البصرى» على الركوب.

وكان الحاج خليفة رجلا من تجار بغداد، يقيم فى داره الواسعة المنعزلة فى حىّ الرصافة. وكان يعبر مع كريم الدين كل يوم فى أول النهار، قبل أن يزدحم القارب بالعابرين، فكان يجد فرصة عند ذلك ليتحدث إلى الفتى،

وأعجبه منه حسن أدبه، وجمال ذوقه فى تزيين القارب، وكان يجد فى حديثه ما يدل على الفطنة وعلو الهمة، فنشأت بينهما ألفة، أصبح كريم الدين معها يتبسط فى الحديث، ويشعر بميل شديد إلى ذلك الشيخ الوديع، ويخاطبه فى بعض الأحيان قائلا له: «يا عمى». وكان الشيخ يظهر الرضا عند ذلك، ويخاطبه قائلا له: «يا ولدى».

ولما بلغ القارب الشاطئ الغربى نزل الشيخ، وكان معه صندوق صغير وربطة كبيرة ملفوفة فى منديل، وكتاب مُغلّف فى كيس من الحرير الموشى بالقصب الذهبى. فقال للفتى: أرجوك أن تحفظ هذه عندك حتى أعود.

فوضع الفتى تلك الوديعة فى صندوق تحت المقعد الخلفى، حيث اعتاد أن يضع الودائع التى يأتمنه الناس عليها، وذهب الحاج وعاد كريم الدين إلى عمله، حتى علت الشمس وتزاحم الناس على قاربه. وبينما كان منصرفا إلى عمله يستعد للسير فى قاربه الممتلئ بالعابرين، سمع الحاج يناديه من الشاطئ، فذهب إليه ولمح على وجهه ما ينمّ عن القلق الشديد. فقال له الشيخ فى صوت مضطرب: إنى محتاج إليك يا كريم الدين.

فنظر إليه الفتى مرتبكًا، والتفت إلى قاربه، وإلى العابرين ينتظرونه فيه. وأدرك الشيخ ما يجول فى نفسه فقال: ألا تستطيع أن تعود إلىّ بعد أن تعبر بهؤلاء؟

فقال كريم الدين: سأذهب إلى بيت الشيخ عبد السلام لأدعوه إلى القيام فى مكانى حتى أقوم بخدمتك.

فشكره الحاج، وأسرع كريم الدين إلى القارب فعبر بالناس، ومن حسن حظه أنه وجد الشيخ عبدالسلام منتظرًا على الجانب الشرقى.

فلما عاد كريم الدين إلى الحاج خليفة وجده ينتظر فى لهفة، وسأله أن


DIK

يحمل معه الوديعة التى أودعها عنده، ثم أسرع فى سيره وكريم الدين يسير إلى جانبه متعجبًا، يسأل نفسه ماذا عسى يريد ذلك الرجل من مساعدته، حتى بلغا دارًا كبيرة فى قلب المدينة. ففتح الحاج الباب ودخل صامتًا، وسار كريم الدين وراءه، فعبرا فناء فسيحًا فيه أنواع من الأشجار ، وقد تساقطت أوراقها فغطت الأرض، ومازال الحاج سائرًا حتى بلغ إيوانًا فى طرف الفناء، فأشار إلى كريم الدين أن يضع الأشياء التى معه على منضدة من الأبنوس، ثم جلس على أريكة، وأشار إلى كريم الدين أن يجلس وقال: إنك بغير شك تعجب من أمرى. والحق أنه يدعو إلى العجب!

فقال كريم الدين مجاملا: عفوًا يا سيدى.

فقال الحاج: وسوف يزيد عجبك إذا سمعت حديثى. إننى واثق من شهامتك، فقد عرفت خلالك الكريمة من أحاديثنا التى كنا نتبادلها فى هذه الأشهر الثلاثة. ولكنى لا أحب أن أطيل الحديث، فإنك تريد أن تعرف ماذا أريد من مساعدتك.

فنظر إليه كريم الدين باهتمام ولكنه لم يتكلم.

فقال الحاج: أنت تعرف بغداد يا ولدى فأنت من أبنائها. وقد كثرت فيها الفتن التى يثيرها الأدنياء الذين لا يبالون شيئًا فى سبيل بلوغ غايتهم الحقيرة.

وقد بلغنى أنهم يدبرون فتنة جديدة تُسفك فيها الدماء، وتُحرق فيها البيوت، وتنهب الأموال، وما قصدهم من ذلك سوى التخلص من هذا الوزير التقىّ «بهاء الدين» لأنه لا يحقق لهم ما يريدون.

وسكت الحاج حينًا ونظر إلى كريم الدين فوجده مطرقًا. فقال مستمرًّا فى حديثه: إنك تسأل نفسك بغير شك: «ماذا يهمك من كل هذا؟» إنه من

حسن حظك أن تكون بعيدًا عن هذه الأمور المحزنة، قانعًا بقاربك ونهرك. ولكن من سوء حظى أننى صديق لهذا الوزير، ولاشك فى أننى سأكون أحد ضحايا هذه المؤامرة. ولهذا عزمت على ترك بغداد لأهلها. سأهاجر من بغداد ولا أريد العودة بعد ذلك إليها.

فقال كريم الدين: يَعز علينا يا سيدى أن تفارقنا.

فقال الحاج: سأسافر إلى أرض بعيدة طالما اشتاقت نفسى إلى الرحيل إليها، لعلك لا تعرف أننى من سلالة حسن البصرى.

فصاح كريم الدين: الصائغ البصرى؟

فقال الشيخ: نعم يا ولدى، وهو جدى الخامس.

ثم مد يده إلى الكيس الحريرى الموشى بالقصب، فأخرج منه كتابًا، ومد به يده إلى كريم الدين قائلا: هذا كتابه الذى لم تقع عليه عين أحد من الناس.

فقال كريم الدين: لقد قرأت قصة رحلاته إلى «جبل الدخان» و «جبل قاف».

فقال الحاج: ولكن هذه قصة رحلة أخرى. رحلة قام بها فى آخر حياته، ولم يُطلع على أخبارها أحدًا.

وفتح كريم الدين الكتاب وقال فى حماسة: ما أجمل هذا الخط يا سيدى.

فقال الشيخ: هذا خطه يا ولدى. لقد كان حريصًا على أن يُبقى هذه القصة سرًّا. وهذا الكتاب أثمن ما ورثته عن أبى. وقد ورثه أبى عن أبيه كما ورثه أبوه عن جده. وكل والد يوصى ابنه أن يحفظ هذا السر لأبنائه،

لعل أحدًا منهم يستطيع أن يرحل إلى تلك الأرض التى ذهب إليها جدنا الأكبر حسن البصرى.

فقال كريم الدين: وأين تلك الأرض يا سيدى؟

فقال الحاج: هى «جزيرة سليمان»، هكذا يسميها جدى، وهى على مسيرة ثلاثة أيام من «سرنديب». فقال كريم الدين: إنها قريبة.

فقال الحاج: ولكن العجيب أن الناس لا يصلون إليها. فإنى لم أسمع أحدًا من أهل الأسفار يذكرها أو يعرف شيئًا عنها.

فقال كريم الدين: وكيف ذهب جدك إليها؟

فقال الحاج: كان جدى مخاطرًا لا يهاب ركوب البحر، وهى بعيدة فى وسط المحيط، ولا يجرؤ أصحاب السفن أن يتجهوا إليها لأنهم يسيرون على مقربة من الشواطئ خوفًا من غوائل البحار.

فقال كريم الدين: وهل تريد أن تذهب إليها؟

فقال الحاج: لقد عزمت على ذلك يا ولدى. وليس لى هنا فى بغداد ما يُمسكنى.

وأطرق عند ذلك حينًا ثم قال فى صوت حزين: ليس لى ولد، وقد ماتت زوجتى منذ سنتين. فأنا مثلك يا كريم الدين، كلانا وحيد فى بغداد الواسعة.

فشعر الفتى بعطف شديد نحو هذا الرجل الذى يملأ اليأس قلبه، وقال: وهل أقدر على أداء خدمة لسيدى؟

فقال الشيخ: أنا فى حاجة إلى مثلك يا ولدى ليكون صاحبى فى رحلتى، تلك الرحلة التى لا أفكر إلا فيها فى صباحى ومسائى، «جزيرة سليمان!»

ونظر إلى وجه الفتى ليرى أثر ذلك القول فى نفسه.

ففتح كريم الدين عينيه وقال بصوت حالم: جزيرة سليمان!

فقال الشيخ: أنت مثلى يا كريم الدين لا يربطك شىء إلى بغداد. وما معنى هذه الحياة إذا كنت تقضيها فى مثل عملك من الصباح إلى المساء؟ أترضى أن تسخِّر حياتك لهذا القارب الذى تقطع فيه نهر دجلة مرة بعد مرة؟ إن مثلك يا ولدى لا يليق به أن يقنع بمثل هذه الحياة.

فسكت كريم الدين حيناً، وتواردت على فكره صور بعد أخرى من حياته الهادئة، وخيل إليه أنها مملة حقًّا، وطنّت فى أذنيه أصوات كأنها تناديه وتدعوه إلى المخاطرة ومقابلة الآفاق المجهولة. ومن العجيب أنه أخذ يحس الابتهاج يملأ صدره كأنه يرى أبواب الأمل تنفتح فجأة أمام عينيه.

وقال مرة أخرى: جزيرة سليمان!

قال الحاج: نعم يا ولدى هى جزيرة سليمان. ستقرأ وصفها فى هذا الكتاب الذى بين يديك، وإن كانت فيه صفحات ناقصة. ولو كان ذلك الكتاب كاملا لكان عجيبة الأعاجيب فى زماننا. هناك فى تلك الجزيرة ترى ما لم تر الأعين من قبل، وتسمع ما لم تسمع الأذن. هكذا قال جدى؛ هناك حيث الحصى من الياقوت والجواهر، وحيث الرمل من تبر الذهب، وهناك حيث ترنّ فى الفضاء أنغام الموسيقى من غناء الملائكة، وحيث أودع سليمان الحكيم أسراره الخفية التى سخرت له الإنس والجن.

فقال كريم الدين فى صوت ضعيف: وخالتى؟

فقال الحاج: سأهب هذه الدار لها. هى ملك لها منذ الساعة إذا رَضيتَ أن تصاحبنى.

فخفق قلب كريم الدين وقال: والشيخ عبد السلام؟

فقال الحاج: سأترك له ما يُرضيه يا ولدى. سوف أرضيه فإنى غير محتاج إلى أموالى. بل إنه خير لى أن أقسم تلك الأموال بين فقراء بغداد قبل سفرى فهذا خير من أن تضيع نهبًا للأوغاد فى الثورة المدبرة.

فقال الفتى: ومتى عزمت على الرحيل؟

فقال الحاج: بعد يومين يا ولدى. هناك سفينة على الشاطئ تستعد للسفر إلى بلاد الهند والصين.

فنظر إليه كريم الدين فى قلق ولم يَدْر بماذا يجيب.

فقال له الحاج: لا أريد منك الآن جوابًا. سوف أسافر وحدى إذا لم تحب أنت أن تصاحبنى. فإذا رأيت أن تكون معى فموعد السفر صباح يوم الخميس، بعد يومين. خذ هذا الكتاب معك فاقرأ فيه، وأعدْه إلىّ إذا أردت البقاء فى بغداد.

وقام الحاج مبتسمًا إلى كريم الدين ومد يده مصافحًا. فصافحه الفتى وأخذ الكتاب فى يده صامتًا ثم مضى مطرقًا حتى بلغ الساحل، وانتظر قارب الشيخ عبد السلام.

٣

انتهى عزم كريم الدين إلى الذهاب مع الحاج خليفة البصرى فى رحلته، وكان يومًا صافيًا من أيام الخريف عندما تحركت السفينة «قصر البحار» تحمل بين ركابها الحاج خليفة البصرى وكريم الدين. وكانت خالة الفتى قد انتقلت إلى الدار الفسيحة التى وهبها لها الحاج فى قلب المدينة. ولم ينس الحاج كذلك أن يهب للشيخ عبد السلام داره فى الرصافة، كما وهب للخالة العجوز أموالا تكفيها لعيشة رَغد فى أثناء غيبة كريم الدين عنها. وسار الشيخ عبد السلام على الشاطئ يدعو للحاج ولكريم الدين بالسلامة، ويُلوّح لهما بيده حتى بعدا عن نظره.

ووقف كريم الدين ينظر إلى بغداد وهى تبعد عنه، ولم يكن يحسب أنه سيشعر عند سفره بمثل ذلك الحنين الذى ملأ قلبه. وغابت أطراف المدينة بعد حين، فنظر كريم الدين إليها نظرة وداع، ثم سار والدموع تملأ عينيه إلى ناحية، فجلس حزينًا وجلس الحاج إلى جواره صامتًا.

ومضى حين طويل، وكان هواء البحر يهبّ وديعًا ويملأ أشرعة السفينة، وطلعت الشمس ساطعة فوق الأمواج الهادئة التى كانت تتراقص زرقاء لامعة. فذهبت الوحشة عن قلب كريم الدين شيئًا بعد شىء، وداخله شعور جديد بأنه يستقبل حياة زاخرة بالمعانى. وأخذ الحاج يحدثه عن الأرض العجيبة المجهولة التى خرجا يَنشدانها.

فقال كريم الدين: أما تعرف أحدًا زار تلك الأرض غير جدك يا سيدى؟

فقال الحاج: لا يعرف أحد سوانا شيئًا عنها. أقرأت الكتاب؟

فقال الفتى: هو كتاب عجيب لا أكاد أصدق ما فيه.

فقال الحاج: لقد وصف جدى ما رآه بعينيه.

فقال الفتى ضاحكًا: هو يقول إن حصاها من اللؤلؤ والياقوت والألماس، وإن صخورها من البلّور.

فقال الحاج: كأنك لا تصدق ما يقول يا كريم الدين. إننى لا أشك فى حرف واحد من أقوال جدى.

وأخرج الكتاب من كيسه الحريرى، فجعل يقرأ فيه كما قرأ فيه من قبل مرة بعد مرة.

وأصغى إليه كريم الدين وهو يقرأ صفحة بعد صفحة، والمناظر ترتسم فى ذهنه واحدًا بعد واحد، كأنها صور من عالم سحرىّ. ومرت الأيام يلى بعضها بعضًا، والسفينة تجرى آمنة فى مجراها، تمر بالجزائر ولا تعرّج عليها، لأن أول موقف لها كان عند جزيرة سرنديب. وكان رُبانها رجلا خبيرًا بالبحار لا يبالى أن يكون سيره فى الليل أو فى النهار، ولا يعبأ إذا كانت السماء صافية أو كانت السحب تغطيها. وكانت معه آلة جاء بها من بلاد الصين، تدله على اتجاه سيره متى شاء. ولهذا سارت السفينة فى عُرْض البحر رشيقة فوق الأمواج، والهواء يملأ أشرعتها.

وكان كريم الدين يزداد فى كل يوم حماسة إلى رحلته، وصار يحس وهو فى وسط البحر الصافى، وتحت السماء الزرقاء، أنه قد بدأ حياة جديدة ملأى

بالجلال والعظمة، وصغرت فى عينيه حياته الأولى التى قضاها فى بغداد، وما فيها من زحمة ومنافسة وهموم. فكان يجلس فى الليل يتمتع بالنظر إلى النجوم وجمال تنسيقها، ويستمع إلى خرير الماء إذ تشقه السفينة بصدرها، إلى أن اقتربت السفينة بعد أسبوعين من جزيرة سرنديب، وأخذ البحارة يتحدثون عما فيها من جبال ومدائن وأودية، وما سمعوه عن جواهرها ولآلئها. ولكنه كان كلما سمع ذلك سرح بفكره إلى جزيرة سليمان وحدها. فهناك كان الحصى من الجواهر الثمينة، وهناك كان الصخر من البلور النقى، وهناك كنوز سليمان التى لم يستطع أحد من البشر أن يصل إليها.

ولاحت على الأفق الشرقى قبل غروب الشمس بعض جزائر، كأنها بساتين عائمة فوق سطح الماء، ونخيلها يشمخ برؤوسه العالية منقوشة على صفحة السماء.

ثم ظهرت بقعة سوداء كأنها واحدة من تلك الجزائر، لولا أنها كانت مثل الكتلة الصماء، ووقف البحارة ينظرون نحوها فى قلق.

ولما اقتربت الشمس من الأفق، ومالت للغروب، كانت البقعة السوداء قد علت، فإذا هى سحابة عظيمة تغطى نصف السماء، وبدأ القلق يتسرب من البحارة إلى المسافرين، وأخذ كل جماعة منهم يتهامسون، وانتشروا فى أنحاء السفينة والاضطراب ظاهر على وجوههم. ولما أقبل الليل لم تلمع النجوم على عادتها، لأن السحابة غطت وجه السماء، واشتدت الحرارة فجأة، وبدأ الهواء يهبّ فى دفعات قوية. وعلا الموج وأخذ يصدم جوانب السفينة فى عنف، ويضطرب بها نحو اليمين والشمال. ثم ما هى إلا ساعة حتى صار الهواء عاصفة شديدة، فدفع السفينة فوق الأمواج المضطربة، كأنها ريشة تتطاير فى الفضاء. وأخذ المطر ينهمر كالسيل، وعلا الصياح من

كل جانب، أقبل البحارة يجاهدون فى مكافحة العاصفة. وهكذا انقلب البحر فجأة من سلام وهدوء وجمال إلى غول هائج يهدّد بالهلاك ويسخر من حيلة الإنسان.

ولم يغمض جفن كريم الدين فى تلك الليلة، كما لم يغمض جفن أحد من ركاب السفينة. ولما طلعت الشمس من الشرق فى اليوم التالى كانت قرصًا خافت الضوء، يلوح أحيانًا من ثقوب بين السحب السوداء، ثم لا يلبث أن يختفى.

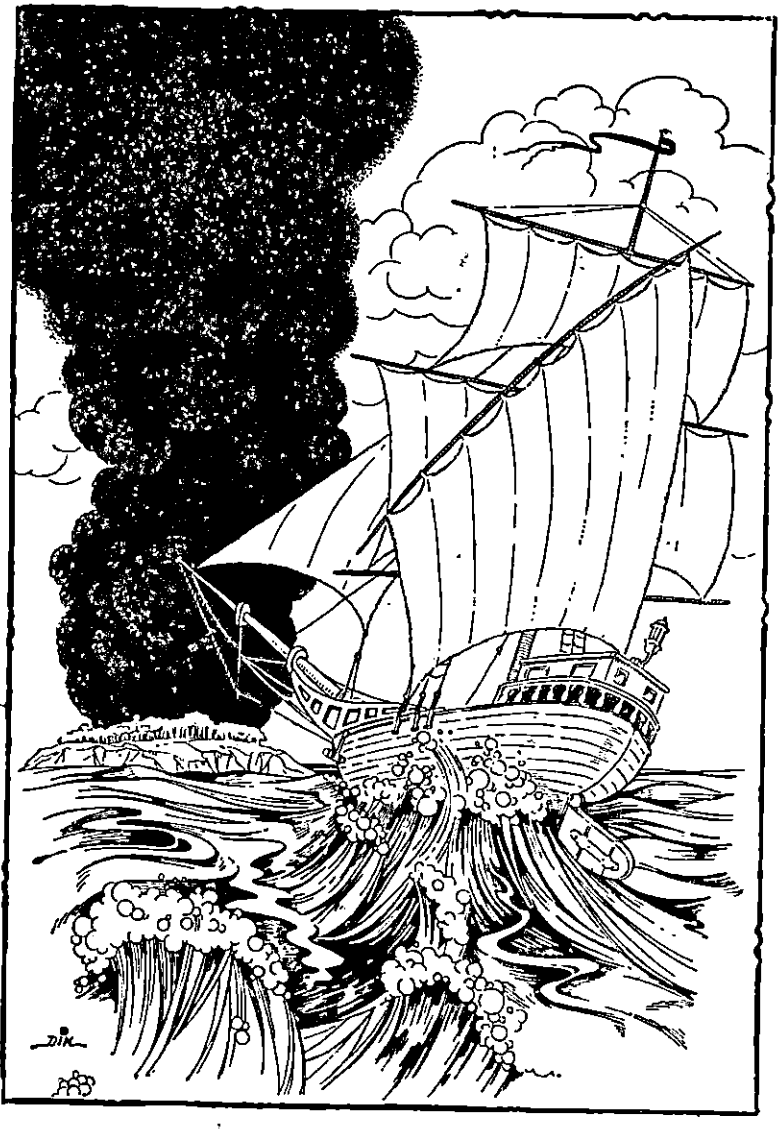
وسأل الناس الربان متى يبلغون شاطئ سرنديب، فهزّ الرجل رأسه وقال: لقد دفعتنا العاصفة إلى الجنوب!

وكانت السفينة تنساق مع الهواء مثل عود ضئيل من التبن إذا حمله تيار النهر فى سبيله.

وطالت ساعات النهار حتى خيل إلى الناس أنها قد امتدت فصارت دهرًا، ولكنهم كانوا مع ذلك يخافون أن يُقبل الليل برهبته وظلامه، فيزيد المخاوف التى حولهم شدة.

وكان الحاج خليفة قد أصيب بدُوار شديد، فاستلقى على ظهر السفينة خائر القوى، وحاول كريم الدين أن يساعده بما استطاع، ولكن الاضطراب الشامل جعل سعيه بغير جدوى.

وكان من حسن الحظ أن العاصفة هدأت بعض الهدوء عند منتصف النهار، فتكشف الأفق ورقّ لون السحاب، ولكن السماء بقيت مع ذلك عابسة يتساقط منها المطر رذاذًا. فوقف الناس على جوانب السفينة يقلبون أبصارهم فى الأفق لعلهم يبصرون أثرًا من الأرض، ووقف كريم الدين على مقربة من مَرقد صاحبه الحاج، وامتلأ صدره بشعور انقباض شديد،



وتواردت على ذهنه الأفكار المظلمة، فندم على أنه أطاع خياله فى هذه المخاطرة، ولام نفسه على أنه غادر وطنه، واستجاب لنداء رجل أجنبى عنه، دعاه إلى تلك الرحلة البعيدة التى لا يعرف حقيقتها.

وفيما كان يفكر فى هذه الخواطر المحزنة، رأى عند الأفق بقعة سوداء تشبه البقعة التى لاحت عند الأفق منذ يوم، فخفق قلبه خفقة شديدة، ودعا أحد البحارة وأشار إلى البقعة قائلا: أهذه عاصفة أخرى؟

فوقف البحار ينظر إلى الأفق حينًا وهو صامت، ثم هز رأسه فى يأس ومضى بغير أن يجيب. فجلس كريم الدين خائر القوة إلى جانب الحاج خليفة وقال: هذه عاصفة أخرى!

فرفع الحاج رأسه فى ضعف وقال: ولكنى أرى السماء قد تكشفت قليلا يا ولدى.

وكان قرص الشمس قد بدأ يظهر خافتًا من وراء السحب الرقيقة وأخذت السماء تتكشف وتظهر قطع زرقاء منها. فصاح الحاج فى فرح: الأرض! الأرض!

وأقبل الركاب والبحارة نحوه ينظرون إلى حيث كان يشير فى حماسة، وأخذ كل منهم يزعم فى تلك البقعة زعمًا، حتى أقبل الربان فأمر البحارة أن يغيروا سير السفينة حتى تتجه إلى تلك الأرض. وبعث الأمل فى البحارة القوة فسارعوا إلى عملهم فى نشاط.

وأقبل الليل، وعاد الهواء إلى شدته، وزاد البحر هياجًا، وهطل المطر شديدًا. ولكن البحارة كانوا يرون أمامهم أرضًا يقصدون نحوها، ويعللون أنفسهم بقرب بلوغها، فلم يزدهم هبوب الرياح إلا همة. وأقبل كريم

الدين وكثير من الركاب على مساعدتهم، وانصرف كل منهم إلى عمله صامتاً.

وفيما كانوا فى جهادهم الشديد لمع الأفق فجأة بوميض نور، فالتفت الجميع إليه فإذا هو عمود من النار يرتفع إلى السماء، ثم يخبو فجأة كما بدأ. فخيّم الصمت لحظة ثم صاح الربان فى فزع: جزيرة النار!

وصاح البحارة: جزيرة الشياطين!

واجتمع ركاب السفينة فى حلقات حول الربان والبحارة يستمعون إلى ما يقولونه عن تلك الأرض التى تدفعهم العاصفة قسرًا إليها.

فقال الربان، واسمه «حسين الموصلى»: «عرفت هذه الأرض منذ عشرين عامًا. كنت ها هنا فى هذا البحر نفسه. وهبت علينا عاصفة كهذه التى تزمجر حولنا». وسكت الربان لحظة وهو ينظر حوله ثم استمر قائلا: «دفعتنا العاصفة قسرًا كما تفعل هذه العاصفة بنا الآن، فلم نستطع إلا أن نسير مع الريح حتى ألقت بنا على ساحل الجزيرة. إننى أشعر برعدة تهزّ جسمى كلما تذكرت منظر ذلك الساحل الجميل. إنه ساحل لم تقع عينى على مثله، ولكن هذا الجمال ما هو إلا خدعة من خدع الشياطين، لكى تُغرِّر بالمساكين الذين يقتربون من الساحل، فيحملهم ذلك الجمال على أن يبعدوا ويدخلوا فى شعاب الأرض، فتخطفهم وتتخذهم عبيدًا لها. فما نزل إنسان على ذلك الساحل ثم ظهر له أثر بعد ذلك».

فقال كريم الدين ضاحكًا: أما رأيت أحد هؤلاء الشياطين فى رحلة من رحلاتك؟

فقال حسين غاضبًا: إنك تسخر من قولى لأنك فتى جاهل.

وكان الحاج خليفة مازال مريضًا، ولكن الخطر المحدق بالسفينة جعله ينسى مرضه ويقوم من مرقده ويقف مع الجماعة يستمع إلى حديث الربان. فقال عند ذلك: إن كريم الدين لا يسخر يا سيدى، بل يسألك سؤالا.

فهدأ غضب الربان وقال بعد أن نظر نظرة قاسية إلى كريم الدين: إن الجن الذين يسكنون هذه الأرض لا يظهرون إلا فى الليل، فترمى عيونهم بلهيب أزرق مخيف، وتسمع أصواتهم مثل غليان الماء. وهم يبعثون السفن المسحورة على مقربة من الساحل فى أثناء العواصف، لتضلل المسافرين الذين يقتربون من أرضهم، وتقذفهم فى بحار من الطين العفن تتصاعد منها الأبخرة السامة.

فقال كريم الدين: حقًّا إنهم شياطين خبثاء!

فالتفت الربان حسين إلى كريم الدين بغيظ وقال له: كأنك تكذبنى!

فأمسك الحاج خليفة بذراع كريم الدين ليمنعه من الكلام، ولكن كريم اندفع قائلا: لست أكذبك يا سيدى، ولكنى أعجب لهذه الشياطين التى تضيع وقتها فى هذا العبث.

وكاد الربان يصيح بكريم الدين غاضبًا، لولا أن دفعة من الريح الشديدة قذفت السفينة عند ذلك فوق رأس الموج الهائج، فاضطرب الجميع وعلا الصياح، وانشغل كل منهم بأمر نفسه.

ولم يستطع الحاج خليفة أن يقاوم الهزة العنيفة فسقط على سطح السفينة، فأسرع كريم الدين ليساعده.

واندلع اللهب عند ذلك من طرف الأفق، فارتفع فى السماء فجأة، وتوهج الفضاء المظلم بنور خاطف، ثم انطفأ اللهب فجأة، وصار الظلام يلف البحر ويزيده رهبة.

وطالت تلك الليلة القاسية، حتى خيل إلى كل من فى السفينة أن الشياطين الخبثاء قد تآمروا عليهم فمنعوا النهار من الطلوع مرة أخرى. ولكن كريم الدين كان فى شغل من العناية بصديقه الحاج خليفة، الذى زاد به الضعف، ورقد فى مضجعه يَئِنّ ويتوجع كلما اضطربت السفينة.

وأخيرًا طلع الفجر بعد الليلة التى لم يغمض فيها جفن، وبدا شاطئ الجزيرة قريبًا، ودخل شىء من الاطمئنان إلى الصدور. وهدأت الريح شيئًا بعد شىء، حتى أرست السفينة فى الخليج مع مطلع الشمس، ووقعت العيون على منظر بديع ليس فى كل الأرض منظر يقرب منه حسنًا.

٤

كانت صخور الساحل رائعة فى ألوانها وأشكالها، فمنها الأخضر الزبرجدىّ ومنها الأبيض اللؤلؤى، ومنها الأحمر القرمزى، وكانت منسقة فوق تجاويف منحوتة، يتخللها الماء الأزرق الصافى، وكانت تحفّ بالشاطئ جزائر صغيرة مبعثرة، والماء من حولها هادئ، لا تُجعِّده إلا خطوط متراقصة فى حلقات، يسوقها النسيم الفاترة أمام أنفاسه. وكانت خمائل من الأعشاب والشجيرات تنبت يانعة الخضرة فى فجوات بين الصخور، تزينها أصناف من الأزهار بعضها صغيرة وبعضها كبير، فيها من كل لون ومن كل صورة. فكانت بعض الخمائل تكسوها غلالة من أزهار حمراء فاقعة، وأخرى تكسوها أزهار بيضاء ناصعة كالثلج، أو تتمازج فوقها الألوان متناسقة مثل باقة أنيقة. وكانت بعض الخمائل تشبه القباب، تتدلى منها عناقيد الزهر، وبعضها يمتد فوق الأرض فراشًا، أو يتعلق فوق أغصان الشجر، وتمتد فروعها من شجرة إلى أخرى كأقواس النصر.

وبهرت هذه المناظر عيون الجميع حتى الربان حسين نفسه، فوقفوا يتأملون ما فيها من إبداع، ولكن كريم الدين كان أشدهم إعجابًا بها، فوقف مسحورًا، ينقل بصره فى سفح الجبل وفى خط الساحل وفى صفحة البحر الهادئ وهو صامت.

واستجمع الحاج خليفة ما فيه من قوة، وقام يشارك فى التمتع بذلك الجمال الذى لم يشهد مثله فى حياته. وقد أثر ذلك المنظر فى نفوس الجميع

فنسوا ما قاسوه من الشدائد، وما سمعوه من القصص المخيفة عن تلك الجزيرة، وامتلأت قلوبهم بهجة، فأخذوا بعد قليل يمرحون ويمزحون ويضحكون، وأقبل بعضهم على إعداد طعامه، وبعضهم على تنظيف مضجعه أو ترتيب أمتعته التى بعثرتها العاصفة، ولكنهم لم ينزلوا من السفينة لأن الربان كان مُصرًا على أن يستأنف السفر بعد أن يصلح أمر السفينة، ويرمم الأوتاد والقلوع، وينزح ماء المطر الذى تجمع على سطوحها وملأ قاعها.

وكانت السحب قد انقشعت عن السماء، ولم يبق من أثر العاصفة إلا بعض هبات مُتقطعة ، يظهر أثرها فى اضطراب الأمواج التى تتكسر على حاجز من الصخر فى عرض البحر البعيد.

ولكن كريم الدين لم يستطع أن يقاوم المنظر، فاستأذن صاحبه الحاج خليفة فى النزول إلى الشاطئ ليسير عليه حينًا، وتركه بعد أن أعد له شيئا من الطعام، ومَهد له فراشًا وثيرًا يستريح فيه، وأخذ معه بعض الطعام، يأكل منه وهو سائر يتأمل ما يرى وهو ذاهل من روعة حسنه.

سار كريم الدين على الساحل والمياه الصافية تشفّ عن القاع الرملى الأبيض، وتظهر من تحتها شعاب مختلفة الألوان من المرجان، والأسماك تسبح بينها متلألئة بألوانها المختلفة، كأنها من الياقوت والزبرجد واللآلئ والكهرمان، تقترب حينًا من الشاطئ وترفع رؤوسها إلى قرب سطح الماء كأنها تنظر إلى ذلك الزائر الذى لم تعهد مثله من قبل.

ومازال سائرًا فوق صخور الساحل الملساء، التى تغطيها الطحالب الخضراء والحمراء، حتى بلغ نهاية الخليج الذى أرست فيه السفينة. فوجد هناك نهرًا صغيرًا منحدرًا من الصخور العالية، يصبّ فى شلال فوّار يتطاير

منه الرشاش الأبيض، وتنعكس عليه أنوار الشمس المشرقة، فى قوى من الأقواس الزاهية. فاقترب من المجرى، وملأ كفه من مائه، وذاقه فإذا هو ماء عذب له رائحة عطرية. فشرب حتى ارتوى، وأحس أن قلبه يمتلئ سعادة. ورأى تحت الصخرة التى ينحدر الماء من فوقها فجوة واسعة، فاتجه نحوها فإذا بها مدخل كهف له جوانب من الصخر الشفاف الأخضر. وأطلّ من ذلك المدخل فوجد وراءه فضاء عظيما، يشيع فيه نور يشبه نور القمر، ورأى به أعمدة بيضاء عجيبة الأشكال، بعضها صاعد من الأرض، وبعضها هابط من سقف الكهف، وتتخللها خمائل من الأعشاب الخضراء فى فجوات من الصخر الشفاف، فكان منظرًا فاتنًا يأخذ بالألباب. فوجد كريم الدين نفسه يندفع إلى الدخول فى ذلك الكهف، وأخذ يتنقل من موضع إلى موضع، وهو فى كل خطوة يرى منظرًا أعجب من سابقه.

وكان بين حين وآخر يرى لسانًا صغيرًا من اللهب الأصفر، يخرج من ثقب فى الصخر فى هيئة الشمعة العظيمة، فيكسب نوره المنظر بهاء فوق بهاء. ومازال سائرًا لا يحس مرور الزمن، حتى تعب، وتذكر أصحابه الذين تركهم وراءه، وتذكر الحاج خليفة الذى تركه ضعيفًا، وأنه بغير شك قد استطال غيبته. وتذكر الربان، وما قاله عن تلك الجزيرة وشياطينها، فأحس شيئًا من الرهبة يدبّ فى قلبه، فأراد أن يعود من حيث أتى، فسار مسرعًا بين الأعمدة والخمائل المتشابهة، ولكنه وجد أن مدخل المغارة اختفى عنه، فلم يدر أين كان ولا إلى أين ينبغى له أن يتجه فى سيره. وكان كلما سار وجد نفسه بعد حين يعود إلى موضعه الأول الذى كان من قبل فيه، وسمع كركرة شديدة انطلق بعدها صوت انفجار يشبه قصْفَ الرعد، فوثب فى مكانه من المباغتة، وتلفت حوله حائرًا فزعًا، فلم ير إلا غابة من الأعمدة البيضاء، تمتد أمام عينيه إلى غير نهاية. وكان الصوت ضعيفًا،



فشعر بوحدة ملأت قلبه وحشة، واستمر الصوت حينًا ثم انقطع فجأة، وحل محله صوت يشبه نشيش غليان الماء.

وهكذا قضى زمنًا طويلا يضرب فى الكهف على غير هُدى، حتى خشَىَ أن يمر اليوم كله وهو علي تلك الحال، كلما خرج من ممر طويل بين الأعمدة دخل فى ممر آخر مثله.

ولم يَدْر كم مضى من الزمن وهو فى سيره المضطرب، ثم لاح له شعاع من النور، فخرّجت منه صيحة فرح، وأسرع يجرى نحو الفتحة التى ينبعث النور منها، وهو يكلد يطير من السرور. ولكنه عندما بلغها لم يجد الشاطئ وراءها كما كان ينتظر، بل رأى فضاء واسعًا مكشوفًا للسماء الزرقاء، تحيط به دائرة من الصخور العالية. فأحس خَيبة أمل عظيمة، ولكنه شعر بشىء من الاطمئنان عندما رأى نور الشمس يسطع حوله، وسار يتأمل الصخور البديعة الألوان التى لم ير فى حياته مثلها فى جمال ألوانها، ورونق هندستها، فقد كانت شفافة فيها خطوط متموّجة من ألوان مختلفة، وتتخللها كهوف صغيرة تشبه المقاعد أو الحجرات. ومن أعجب مناظرها قطع منحوتة فى أشكال الأعمدة والمناضد والكراسى، منثورة بين فجوات الكهوف. فكان ذلك الفضاء أشبه بقصر أعد لسكنى أمراء من الجن. وتذكر عند ذلك أقوال الربان حسين، ولام نفسه على أنه لم يصدقه ولم يبق فى السفينة مع أصحابه. ولكن حسن الألوان وجمال الرسوم ودقة النحت لم تلبث أن صرفته عن الجزع، فسار ينقل عينيه بين أركان ذلك الفضاء، كأنه إنما جاء ليرتاد ما هناك من محاسن. ومما زاد المكان جمالا أن الزهور كانت تنبت فى خمائل فى كل موضع، وتزين الفجوات الغائرة فى الجدران الصخرية، كأنها باقات مختارة من بساتين الملوك، قد نُسقت فى أُصص من كريم الجواهر.

ولما بلغ طرف الفضاء ظهرت له بحيرة تمتد تحت عينيه كصفحة لامعة من الماء الصافى، وأشعة الشمس تنعكس فوقها، والنسيم يجعد سطحها أحيانًا فيزيدها بهاء. وكانت الأشجار القصيرة تحنو على سطح البحيرة بأغصانها المتدلية التى تزينها عناقيد من أزهار مختلفة الألوان. فأسرع فى سيره حتى بلغ جانب البحيرة، وأغراه صفاء لونها على أن يخلع نعليه ويخوض فى مائها، وجعل يتأمل القاع المتلألئ الذى تحت قدميه، ومال إليه فأخذ حفنة من حصاه، وجعل يتأمل اختلاف ألوانها وبريقها، وما كان أشد دهشته إذ رأى أنه يقبض فى يده قبضة من الجوهر الحقيقى الثمين. لقد كان ذلك الحصى مزيجًا من الماس والزبرجد والعقيق والياقوت، وأنواع أخرى لم يسبق له أن رآها. فصاح من الدهشة والفرح، وهو لا يصدق عينيه، ومال مرة أخرى فقبض قبضة ثانية ثم ثالثة، ورمى بها إلى الماء، وخرج إلى الشاطئ فقبض قبضة من الحصى الذى فوقه، فوجدها مثل الأولى كلها من الجواهر الثمينة.

فاعتراه شىء يشبه الفزع وصاح قائلا كأنه يراجع نفسه: «ما هذا؟ إنه جوهر! إنه جوهر!» واندفع يجرى كالمخبول، واتجه إلى الجوانب العالية المحيطة بالبحيرة، لعله يستطيع أن يصعد فوقها فيشرف من هناك فوق البحر، لينادى أصحابه. فمازال حتى بلغ قمة المنحدرات وأشرف على مياه البحر، وأجال بصره على الشاطئ وجعل ينادى بأعلى صوته مناديًا بأسماء أصحابه، حتى لاحت له الثنِيَّة التى ينعرج الشاطئ بعدها نحو الخليج الذى أرست فيه السفينة. ومد بصره فكاد يخرّ صَعقًا، لأنه رأى السفينة فى عرض البحر وقد ملأ الهواء قلوعها، وهى تشق الماء رشيقة فى طريقها، فاندفع كالذى أصابه مسّ من الجنون، يصيح وينادى باسم صاحبه الحاج خليفة وباسم حسين الربان وأسماء البحارة واحدًا بعد واحد،

فلم يجبه إلا صدى صوته الذى كان يتردد بين الصخور.

وأجهده الجرى، وتمزق جلد قدميه من السير فوق الصخور، فتهالك على الأرض خائرًا، وصار ينظر حوله يائسًا ، وخيل إليه أن الطبيعة قد تآمرت كلها على أن تبرز فى أبهى مظاهرها لكى تسخر من بؤسه ويأسه ووحشة قلبه.

٥

لم يكن لكريم الدين بُدّ من الاستسلام للقضاء الذى ألقى به وحيدًا فى تلك الجزيرة.

لقد خرج من بغداد ليرافق الحاج خليفة فى رحلته إلى جزيرة سليمان التى لم يسمع عنها من قبل، ولم يكن يحلم يومًا بأن ينزل وحده إلى جزيرة وهب الله لها من الجمال وكنوز الجواهر ما لم يهب لغيرها، ولكنها كانت مع كل جمالها خالية موحشة لا أنيس فيها من الإنسان، بل إنه لم ير فيها أثرًا لحيوان غير تلك الأسماك الملونة التى رآها تسبح بين شعاب المرجان فى ماء الخليج الصافى.

لم يدْر كريم الدين ماذا يصنع فى تلك الجزيرة وحده، ولا كيف يستطيع أن يعيش... ولم يدر ماذا يأكل وماذا يلبس إذا بليت ثيابه؟ بل أين يقضى الليل إذا أقبل عليه بظلامه ورهبته وبرده؟ لقد كانت الجزيرة فائقة الجمال وفيها ما لا يحصى من الجواهر، ولكن ماذا يصنع بجمالها وجوهرها كله؟

وقام من موضعه بعد حين حائرًا، فنزل عن الحافة الصخرية التى اعتلاها، عائدًا إلى الوهدة التى فيها البحيرة. وكانت المخاوف والهموم تساوره من كل جانب، ولم يفلح فى صرفها عنه مع كل ما عزّى به نفسه من الاستسلام لإرادة الله، والخضوع لحكم قضائه. وكان منذ الصباح لم يأكل شيئًا، ولكنه لم يحس رغبة فى الطعام من شدة همّه وغمّه. وكانت

الشمس قد مالت نحو الغروب، فاتجه فكره أول شيء إلى البحث عن موضع يأوى إليه فى الليل. وبلغ جانب البحيرة، وكان السهل يتسع إلى غربها الجنوبى، فسار فى ذلك السهل، وكانت الأعشاب الخضراء والأزهار تكسو سطحه، وتتناثر فيه مجموعات من الأشجار والنخيل. واسترعى نظره نخيل جوز الهند الذى كان يميل بتيجانه الخضراء البديعة نحو شاطئ البحر فذهب نحو أجمة وجمع بعض جوزات مما وجده ملقى على الأرض، وأخذ يحطم قشرة واحدة منها حتى أزالها، وأكل منها ما شاء، وشعر عند ذلك بسرور عظيم لأنه أيقن أنه لن يموت جوعًا فى تلك الجزيرة الجميلة. وحمل معه بعض جوزات أخرى وعاد إلى شاطئ البحيرة ليبحث عن موضع بين الكهوف القريبة منها ليقضى الليل فيه. وفيما كان سائرًا فوق السهل المعشب عثرت قدمه بقطعة من الحجر، فتدحرجت، فلاح له منها بريق قطع معدنية فيها. فلما تأمل الحجر وجد أن المعدن الذى فيه عروق من الذهب، فصاح بغير أن يملك نفسه: وذهب أيضًا؟

ثم مال إلى الأرض وكشف الحشائش التى تغطيها، فإذا به يجد عجبًا. كان الطين الذى تنمو عليه الحشائش كله من تبر الذهب الممزوج بالطين الأصفر. فجعل يحفر بيديه فى الطين ويكشف عما تحته، فإذا الطبقة كلها تلمع بالذهب الأصفر!

فقام مبهوتًا وجعل ينظر إلى ما حوله، وإلى التبر اللامع الذى تحت قدميه، وتذكر الجواهر التى رآها على شاطئ البحيرة وفى قاعها، ثم نظر إلى جوزات الهند التى كان يحملها، وتبسم قائلا: «إن جوزة واحدة من هذه أثمن عندى من كل هذا الطين اللامع وهذه الحجارة البراقة». وجمع جوز الهند وخبط التراب اللامع بقدمه وسار فى طريقه نحو البحيرة.


DIK

ومنذ ذلك الحين كان يطأ الحصى اللامع بقدميه، ولا يلتفت إليه، لان تلك الجزيرة علمته حقيقة قيمة الأشياء.

ولما بلغ شاطئ البحيرة اتجه نحو شمالها، وأخذ يبحث فى فجوات الصخور المحيطة بالفضاء الواسع الممتد هناك، وعادت إليه صورة بيته الصغير المتهدم فى بغداد، حيث كان يعيش آمنًا مع خالته العجوز. وخفق قلبه عندما تذكر وطنه العزيز. لقد كان يسير من قبل فى طرق بغداد غافلا عن قيمتها. كانت طرقها عامرة بالناس، وفيها حوانيت التجار يعرضون فيها كل ما يحتاج إليه الإنسان من مأكل وملبس وزينة، وهناك كان يجد من يتحدث إليه ومن يواسيه فى همومه، وهناك كانت خالته وكان الشيخ عبد السلام النوتى الطيب القلب.

ورأى بعد حين كهفًا ظليلا فى جدارٍ من الصخور الخضراء الشفافة، ووجد فيه قطعًا من الحجارة الملونة قد نُحتت عمدًا لتكون منضدة، وكان من حولها بعض كراسى وشىء يشبه السرير. وكان عند مدخل الكهف عدد من الأعمدة الرشيقة التى أكسبته جلال قصور العظماء. ولاحظ فى داخل الكهف لسانًا من اللهيب يخرج من شق دقيق فى الصخر، فاغتبط به اغتباطًا عظيمًا، لأنه يغنيه عن مصباح إذا أظلم الليل.

فاطمأن إلى ذلك المأوى، وألقى جوز الهند فوق المنضدة، ومال راقدًا على السرير الذى كان من صخر وردى اللون. وكان التعب قد بلغ منه كل مبلغ، والجزع والقلق قد أنهكا نفسه، فلم يلبث إلا قليلا حتى كان النوم قد غلبه، وغطى على كل ما كان يساوره من الهموم والأحزان.

٦

طلع القمر يغمر الفضاء الذى أمام الكهف إلى أقصاه، ويلمع فوق البحيرة الساكنة كسطح المرآة. وفتح كريم الدين عينيه متنبهًا من نومه على صوت غناء شجى. فتلفت حوله ليرى مبعث ذلك الصوت، ولكنه لم ير شيئًا، فحسب أنه كان يحلم، وأن دهشة النوم هى التى تصور له أن الغناء مازال مستمرًّا. ولكن الصوت كان يرنّ ويتردد فى ألحان مُشجية على مقربة منه، فقام من مرقده وقعد على سريره الصخرى، ومد عينيه إلى الفضاء الذى أمامه، فرأى منظرًا عجيبًا لم يصدق أنه يراه حقًّا. فعاد إلى نفسه يسألها: أهو فى يقظة أم هو فى منام؟ ورفع يديه إلى عينيه فوجدهما مفتوحتين، ثم وضع إصبعه فى فمه وعضها بأسنانه، فصاح من الألم وقال: أنا صاح بغير شك.

وسمع نفسه وهو يصيح فتأكد من أنه لا يسبح فى عالم الأحلام، وأن المنظر الذى أمامه إنما هو حقيقة لاشك فيها.

كان على مقربة من شاطئ البحيرة جمع من أشخاص قصار القامة، واقفين فى حلقة. كان الفرد منهم لا يزيد على شبرين فى طول قامته، وعلى كل منهم ملابس عجيبة المنظر، وقلنسوة طويلة لها طرف دقيق يشبه المخروط. وكانت ألوان الملابس والقلانس عجيبة منوعة، تشبه ألوان الصخور الشفافة التى رآها على الساحل وفى الكهوف. كان بعضها أزرق من ظلال مختلفة فى قوة الزرقة، وبعضها أحمر أو ورديًا، وبعضها أصفر فاقعًا

أو باهتًا، أو فيه ظلال من كل تلك الألوان، وبعضها أخضر فى لون العشب اليانع، وبعضها بنفسجيًا. كانت ألوانها فى الجملة كلون الأزهار والصخور التى لا حصر لها فى تلك الجزيرة. ورأى كريم الدين وجوههم من بُعد فى ضوء القمر بيضاء كالثلج، وشعورهم الصفراء الذهبية تتدلى من تحت القلانس إلى قرب أقدامهم. وتأمل الأصوات التى يغنوها فسمع هذه الأبيات:

يا زهر بين الصخور يا طير بين الوكور
هال ها ها ها! لا تناموا
يا كروان المساء هال ها ها ها!
حرك سكون الفضاء هال ها ها ها!
واصدح بلحن الغناء الملك لك لك لك!
فى نور بدر السماء

ولاحظ أن فتاة من الجمع هى التى تبدأ بالغناء وحدها، فى صوت عذب لم يسمع من قبل مثله، ثم يردد الجمع النشيد من بعدها.

ثم سمع الفتاة تعطس فجأة عُطاسًا شديدًا، فإذا الجمع كله يعطس بعدها، وأخذوا يضحكون بين عطساتهم، وأخرجوا مناديل صغيرة وضعوها على أنوفهم.

وصاحت الفتاة المنشدة فقالت: إنى أشم رائحة غريبة.

فرد أصحابها جميعًا: إنا نشم رائحة غريبة.

وجعلوا يتلفتون حولهم فى قلق. فتقدم شخص يسير بوقار نحو الفتاة، وكانت لحيته الصفراء الذهبية تصل إلى الأرض. فلما بلغ إلى جانب الفتاة رفع لحيته بيديه ثم انحنى قائلا: إننى أشم رائحة غريبة من هذا الجانب.



وأشار إلى الناحية التى فيها كريم الدين. فالتفتت الفتاة إلى تلك الناحية ثم تحركت، وتحرك الجمع حولها حتى قربت من الكهف. وما كاد نظرهم يقع على كريم الدين حتى التفت بعضهم إلى بعض فى دهشة، ووقفوا مُترددين.

فتقدمت الفتاة التى كانت تنشد متجهة إلى كريم الدين فى هدوء، وهى تضع منديلا حريريًّا فوق أنفها، وسار الجمع وراءها. فلاحظ كريم الدين أنها كانت أطول أصحابها، إذ كان طولها يزيد قيراطين على أطول من فيهم. وكانت ملامحها دقيقة جميلة كأنها دُمية. فخيل إلى كريم الدين أن يقوم إليها ويرفعها بين ذراعيه فيلاعبها كما يلاعب الطفل الصغير. ولكنه خشى إذا قام أن تفزع منه هى وأصحابها، فسكن فى مكانه فوق السرير الصخرى، وتأمل وجهها الجميل، وخديها البارزين المستديرين. وكانت عيناها مفتوحتين من الدهشة وهى تنظر إليه كالطفلة إذا رأت شخصًا غريبًا. فتبسم كريم الدين لها، وما كان أشد عجبه عندما رآها تبتسم هى أيضا، وظهرت أسنانها الصغيرة بيضاء مثل اللآلئ.

وكان الجميع عند ذلك يضعون مناديلهم على أنوفهم، فشم كريم الدين روائح عطرية تفوق المسك، وتقدمت الفتاة الجميلة الصغيرة حتى بلغت موضع كريم الدين، ومدت يدها فلمست طرف ركبته، ولكنها أعادت يدها بسرعة، وكأنها وجدت ملابسه خشنة الملمس. وتجرأ الآخرون عند ذلك فاقتربوا من كريم الدين، وأخذوا يلمسون ملابسه وقدميه وركبتيه، ولما رأوا أنه لا يتحرك ولا يؤذى زادوا جُرأة، واقترب الشيخ صاحب اللحية الطويلة، فوثب بخفة فوق السرير الصخرى الذى كان كريم الدين جالسًا عليه، وأخذ يتأمل أعضاء رأسه، ويلمس كتفيه فى اهتمام. فصاحت

الفتاة الجميلة به: لا تخاطر بنفسك إلى هذا الحد أيها السيد الحكيم «أرمنا».

فعرف كريم الدين أن لهذا الشخص شأنًا كبيرًا، حتى تخاطبه الفتاة بهذا التبجيل.

فأجاب السيد الحكيم أرمنا: لا تخافى ياأيتها الأميرة العظيمة «ميروت».

فعرف كريم الدين كذلك أن هذه الفتاة الجميلة أميرة ، وأدرك السر فى مكانتها العظيمة بين أصحابها.

وقام كريم الدين فى هدوء، خشية أن يُثير الفزع فى الجمع، وانحنى باحترام نحو الأميرة قائلا: للأميرة العظيمة احترامى وإعجابى بجمالها.

فتبسمت ميروت ابتسامة تشبه ابتسامة الأطفال إذا أرادوا أن يكونوا خبثاء، وصفقت بيديها سرورًا، ثم أخذت تغنى وأصحابها ينشدون وراءها:

ماذا أتى بك أيها الإنسى؟ لا أنت من أرضى ولا جنسى
لم يأت من قبل هنا أحد ليثير فينا ثائر العطس!

ثم ضحكت وصفقت مرة أخرى بيديها. فانفجر الجمع ضاحكًا حتى الحكيم أرمنا، الذى صارت لحيته الطويلة تتلوى كالثعبان من شدة الضحك.

فلم يملك كريم الدين نفسه من الضحك بأعلى صوته، وما كاد الجمع يسمع ضحكته حتى أجفلوا فزعًا، ووضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وأسرع أرمنا الحكيم واثبًا إلى الأرض وتعثر بلحيته، فكاد يسقط لولا أن أدركه اثنان فأسنداه.

فتقدم كريم الدين إليه ورفعه بين ذراعيه، حتى صار أمام وجهه وقال له: «إنك ظريف يا سيدى الحكيم أرمنا!».

فنظر إليه أرمنا بجدّ وأجابه: «هذا لا يليق يا سيدى».

فوضعه كريم الدين على الأرض بين ضحك الجميع وقال له: عفوًا يا سيدى الحكيم.

فاقتربت منه الأميرة ميروت وقالت بصوت رخيم: ألا تخبرنى من أنت؟

فانحنى كريم الدين بأدب وقال: أنا خادمك كريم الدين.

ثم ركع على ركبتيه حتى يكون قريبًا منها، وأنشد قائلا:

يا هذه الحسناء ماذنبى؟ ضيف أتى لجوارك الرحب
قذفت به الأمواج هائجة حتى رمته بساحل خصب
إنى غريب الدار منفرد لاأهل من حولى ولاصحبى
علقت آمالى عليك ولى ثقة يحدثنى بها قلبى

فضحكت الأميرة وأصحابها وضحك كريم الدين مرة أخرى، فصاح الجمع، ووضعوا أصابعهم فى آذانهم، وأخذ الحكيم أرمنا يقفز إلى أعلى ليسد فم كريم الدين.

وقالت له ميروت: من أين جئت يا كريم الدين؟

فبدأ كريم الدين يقص عليها حكاية رحلته من أولها إلى آخرها، والتف الجمع حوله فى حلقة يستمعون إليه فى شغف ودهشة.

٧

سمعت ميروت وأصحابها قصة كريم الدين وهم منصتون فى شغف واهتمام حتى بلغ كريم الدين وصف الناس لجزيرة النار وتسميتها جزيرة الشيطان.

فصاحت ميروت: أهكذا يُسمون أرضنا الجميلة؟

فقال كريم الدين: ولو عرفوا الحقيقة لما وجدوا فى العالم أرضًا أطيب منها. كان أولى بهم أن يسموها جزيرة الملائكة.

فقال الحكيم أرمْنا: وهل كان هذا يفيدنا شيئًا؟

فقال كريم الدين: إنه اسم جميل.

فقال أرمنا: هذا كان يدعو الإنسان إلى المسارعة إليها.

وسكت الحكيم لحظة ثم قال: وماذا يضرنا من هذه التسمية؟

فقال كريم الدين: إن بلادكم جميلة . إن حصاها من الجواهر وترابها ذهب.

فقال أرمنا: وماذا تهم الأسماء يا سيدى؟

فقال كريم الدين: لست أحب أن أسميك شيطانًا يا سيدى الحكيم.

فهز أرمنا رأسه فى رزانة وقال: إذا شئت فافعل.

فقال كريم الدين: لولا اسم هذه الجزيرة لأتى معى صاحبى الحاج خليفة على الأقل.

فصاح الحكيم فى حنق: لسنا نريد أن يقصد أحد إلى هنا.

فقال كريم الدين: نحن نسمى مثل هذا الرأى عزلة وتعصبًا.

وعند ذلك تعالت أصوات الجمع من كل جانب وأخذ بعضهم يقول لبعض: لقد أعجبه الحصى اللامع!

فشعر كريم الدين بشىء من الخجل وأراد أن يُغير موضوع الحديث فقال: ولكنى لم أعرف بعد ما اسم هذه الجزيرة.

فصاح الحكيم: وهل يزيدك الاسم معرفةً بها؟

فزاد كريم الدين خجلا من هذه المراجعة التى أحس فيها بأن الحكيم يقول الحق دائمًا، فما كان الاسم يَزيده معرفة بتلك الجزيرة التى رآها بعينيه، وعند ذلك تنبه إلى شىء لم يفطن إليه من قبل. فقد خطر له عند ذلك سؤال: «ألا تكون هذه الجزيرة التى يجهل اسمها هى جزيرة سليمان بعينها؟ ألا تكون هى الجزيرة التى نزل بها حسن الصائغ البصرى منذ زمان طويل؟ ألا تكون هى الجزيرة التى كتب عنها قصته العجيبة بماء الذهب فى الكتاب الذى أخذه الحاج خليفة معه فى السفينة؟» إن حصاها من الياقوت والألماس واللؤلؤ. لقد رأى ذلك بعينه كما رأى تبر الذهب فى الطين الذى تنمو عليه الأعشاب.

وأطرق كريم الدين مفكرًا فى كل هذا وتعجب من تصاريف الأقدار التى تسخر من الإنسان. لقد خرج الحاج خليفة يطلب من وراء رحلته أن ينزل فى جزيرة سليمان وفارق وطنه وأمواله فى سبيلها، حتى إذا ما بلغ



شاطئها أسرع هاربًا منها خوفًا من ذلك الاسم الذى أطلقه الناس عليها. وهكذا الإنسانية دائمًا تفوت عليها أغراضها وهى فى قبضتها ثم تمضى باحثة عن أسماء تُضلل عقولها.

فقالت ميروت عندما رأته مفكرًا: هل يحزنك شىء يا كريم الدين؟

فنظر إليها كريم الدين باسمًا وقال: أليست هذه هى جزيرة سليمان؟

ففتحت ميروت عينيها الواسعتين فى دهشة عظيمة والتفتت إلى الحكيم أرمنا ثم إلى أصحابها وقالت: من قال لك هذا؟

فقال كريم الدين: لم يقل لى أحد شيئًا. قولى لى أيتها الأميرة النبيلة، أليست هذه جزيرة سليمان؟

فقالت ميروت: إنك فتى طيب يا كريم الدين، وأنا سعيدة بأن أراك هنا فى أرضنا. ولكن دع الأسماء فنحن لا نحبها. هذه هى أرضنا التى نشأنا فيها ونشأ فيها آباؤنا وأجدادنا من قبلنا. نحن لا نعرف لها اسمًا سوى أرضنا. ثم نظرت إلى أصحابها وقالت فى جد: اسمعوا أيها الإخوان. اسمعوا يا أبناء شعب «سفروت». هذا كريم الدين أخى. هو منذ الآن أخى. على الجميع أن يعرفوا ذلك.

فانحنى الجميع إلى قرب الأرض فى خشوع، وبلغ من انحناء أرمنا الحكيم أن صارت لحيته تتلوى فوق الأرض كالثعبان. وقالت ميروت لكريم الدين: سنجد أوقاتًا أخرى للحديث يا أخى. أما الآن فقد مضى أكثر الليل وعلينا أن نرجع إلى بيوتنا. سأقدمك لأبى وأمى. فهلم بنا. لقد قرب الصباح وأخشى أن يكون أبى قَلقًا من غيابى.

وسارت نحو سفح الجبل وكريم الدين يسير إلى جانبها ممسكًا بأطراف

أصابعها. وكانت تقفز فى خفة فوق الصخر فيعوض ذلك عن ضيق خطواتها، ودهش كريم الدين من سرعتها التى تشبه سرعة العصفور إذا تنقل بين الغصون.

وسار الجمع وراءها صاعدين فوق سفح الجبل، وكان كريم الدين يجاهد ألا يتخلف عن الأميرة حتى نهج من شدة التعب. وكان يحاول أن يثبت قدميه فوق الصخور خوفًا من الزلل. وكانت ميروت تقف بين حين وآخر كلما اشتد تعبه لتجعله يستريح حينًا. ومالت فى بعض وقفاتها إلى خصلة من الزهر الأبيض فى حوض بين الصخور فقطفت منها زهرة ناولتها لكريم الدين فامتلأ الجو عطرًا. فشكرها كريم الدين ورشق الزهرة فى عمامته واستمر فى سيره الشاق وهو لا يصدق أنه يسير فوق قدميه حقًا. لقد كان ذلك عالمًا عجبًا لم يخطر له يومًا أن يفتح عليه عينيه.

٨

كان الملك «سومو» يحب ابنته ميروت حبًّا شديدًا فكانت إذا خرجت فى الليالى المقمرة للنزهة فى أنحاء الجزيرة جلس على باب القصر فى سفح الجبل يترقب عودتها. وكان القصر الملكى كهفًا عظيمًا فسيحًا فى أعلى السفح يشرف على البحر. وقد اختار المهندسون هذا الموضع منذ قرون طويلة لملوك الجزيرة لأنه يواجه النسيم الشمالى ويحتمى من الرياح الجنوبية العاصفة ولا تدخله أشعة الشمس الحارة.

وهو قصر قديم نحته القدماء فى صميم الصخور، وتوفرت أجيال من عباقرة الفنانين والمهندسين على تزيينه وتجميله. وكان كله من الصخر الشفاف البديع الألوان، حتى أثاثه كان على دقة صنعته من الصخر، ليس فيه أخشاب ولا معادن. فكانت فيه أعمدة تبهر الأبصار من حسنها، ومقاعد وأسرّة ومناضد وكراسى، كلها من الصخر الشفاف البديع الألوان.

وكان الملك سومر جالسًا على باب القصر عندما أقبلت عليه ميروت مع أصحابها. وكان يبدو عليه القلق الشديد، فلما رآها قام فاتحًا لها ذراعيه وهبط نحوها عدة درجات، ولكنه عندما لمح كريم الدين وقف مترددًا، ونظر فى شىء من الغضب نحو ابنته ونحو الحكيم أرمنا. فبادرته الأميرة قائلة: هذا أخى كريم الدين يا أبى.

ثم وثبت فى خفة وتعلقت برقبة أبيها وقبلته بين عينيه قائلة: أنا التى أمرت يا أبى. أنا التى جعلته تحت حمايتى.

فضم الملك ابنته فى عطف، ثم نظر إلى كريم الدين وأحنى له رأسه باسمًا..

فتقدم كريم الدين وركع بخشوع قائلا: دمت يا مولاى وحفظ الله ملكك. أنا خادمك المخلص.

وكان الملك فى مثل طول ابنته ولكنه كان ضخم الجسم من أثر تقدم السن، وكان يظهر عليه أنه رجل عرَك الأيام وجرّب الحوادث، ولهذا كان وجهه مجَعّدًا ولحيته بيضاء قصيرة تصل إلى وسطه. فكان مظهره فى الجملة جليلا يبعث الهيبة فى النفوس.

وقد لاحظ كريم الدين أن شعبه يحمل له من الإجلال ما لا يفوقه إجلال، حتى كانوا لا يرفعون أبصارهم إليه.

ولم يُطل الملك الوقوف، بل صعد نحو مدخل القصر. فانحنى له الجميع وفعل كريم الدين مثلهم، فالتفتت ميروت إليه قائلة: تعال معنا يا كريم الدين.

فصعد كريم الدين وراءها، وذهب الآخرون فى جهات متفرقة واختفوا بعد قليل ذات اليمين وذات الشمال بين الصخور، إلا أرمنا فإنه ذهب إلى جانب الملك صامتًا.

ولما بلغ الملك مدخل القصر جلس على كرسى عظيم من البلّور، ثم التفت إلى كريم الدين وقال له: ستكون أول إنسى دخل هذا المكان.

فقال كريم الدين منحنيًا: أنا شاكر تفضل مولاى.

فقال الملك فى صوت هادئ: أحب أن تَعدنى وعدًا.

فقال كريم الدين مسرعًا: أعدُك يا مولاى.

فهز الملك رأسه ونظر إليه فى شك وقال كأنه يخاطب نفسه: هكذا الإنس دائمًا. يسرعون فى الوعود.

فقال أرمنا الحكيم بصوت هامس: لأنهم يعرفون أنهم سوف يتحلّلون منها.

فخجل كريم الدين وأطرق صامتًا. فرأت ميروت أن الموقف قد تحرّج، فقالت لأبيها وهى تميل عليه: إنه يظهر رغبته فى طاعتك يا أبى.

فتبسم الملك لها وقال يخاطب كريم الدين: لا تؤاخذنى يا فتى، فإنى لم أقصد أن أوجه إليك لومًا.

فسرى عن كريم الدين وقال: شكرًا لك يا مولاى.

فقال الملك: لى عندك رجاء يا كريم الدين.

فقال كريم الدين: هو أمر مطاع يا مولاى.

فظهرت على وجه الملك ابتسامة شك مرة أخرى وقال: إذا استطعت يا كريم الدين. إذا استطعت. أنا أعرف طبيعة الإنس فلا أكلفك إلا أن تَبذل جهدك.

وصمت لحظة ثم قال بصوت صارم: «لا تُطع الطائر الأسود إذا رأيته يومًا».

فلم يفهم كريم الدين ما معنى ذلك، ولكنه قال متحمسًا: أعدك بشرفى يا مولاى. لن أطيعه أبدًا. وإذا دعا الأمر فإنى أقتله بيدى.

فصاح الحكيم غاضبًا: نحن لا نعرف القتل أيها الفتى.

وقال الملك: إنك لن تقدر أن تقتله.

وصاحت ميروت: أنا واثقة أنه لن يطيعه يا أبى.



فنظر الملك إلى الأميرة ثم إلى كريم الدين، ودخل إلى الكهف صامتًا، ودعا الحكيم أرمنا إلى السير معه. وسارت الأميرة متجهة إلى جانب آخر من القصر، ودعت كريم الدين أن يسير إلى جانبها.

تعجب كريم الدين من كل ما وقعت عليه عيناه فى القصر. سار فى إيوان عظيم فيه عدة قاعات مفتوحة تتخللها سلسلة من الأعمدة البلورية وكانت صخورها صفراء كلون الكهرمان. وكان كل ما فى ذلك الإيوان من الأثاث من الحجارة البديعة الألوان منحوتة فى أشكال أنيقة. وكان على جانبى كل غرفة عدد من التماثيل بعضها من صُوَر الحيوان، وبعضها من صور أشخاص شعب سفروت، وهى ملونة ألوانًا طبيعية يخيل إلى الناظر إليها أنها تتنفس وتتحرك.

ولما بلغت ميروت آخر الإيوان وجدت فى استقبالها جماعة من الأتباع، فانحنوا عند قدميها، فأمرت بعضهم بأن يذهب مع كريم الدين إلى الحمام، ثم نظرت إلى كريم الدين قائلة: سأكون فى انتظارك مع أمى.

فذهب كريم الدين مع الخدم، فاتجهوا به إلى طُرقة طويلة تنتهى إلى غرفة واسعة، فيها أضواء قوية منبعثة من ألسنة لهيب أخضر، وفى نهايتها بركة تنصب إليها المياه من عيون متفجرة فى الصخرة. ووضع الخدم رزمة من الفوط فوق كرسى صخرى وخرجوا من الغرفة.

فخلع كريم الدين ثيابه وكانت مدة السفر قد وسختها، وذهب إلى بركة الماء فوضع يده فيها فوجدها دافئة ليست شديدة الحرارة، فنزل فيها وشم عند ذلك رائحة عطرية عجيبة، تخرج فى شكل دخان لطيف أصفر اللون. ولما غمر جسمه فى الماء أحس كأن تيارًا من القوة يسرى أليه. فجعل يدلك جسمه وهو يشعر بأن حياة جديدة تدب فيه. وبأن روحه يتغير ويسمو

ويتلئ سلامًا. ثم خرج من الماء فنشر رزمة الفوط فلفها حول جسمه كما يفعل الحجاج عند الإحرام. وكان ملمسها ناعمًا يشبه ملمس الحرير بل هو أكثر نعومة وطراوة.

وخرج من غرفة الحمام فوجد الخدم ينتظرونه فى غرفة مجاورة، فأشاروا إلى سرير عليه أنواع من الثياب، ثم خرجوا وتركوه وحده.

فأخذ الثياب وتأملها، ومن العجيب أنه وجدها تشبه ملابس أهل سفروت، مع أنه لم ير منهم أحدًا فى مثل حجمه. فلبسها وودّ لو كانت هناك مرآة حتى يرى صورته فيها. وكانت معطرة بعطور غريبة لم يشم مثلها من قبل، فتذكر رائحة الزهرة البيضاء التى كانت ميروت قدّمتها له، فعاد إلى غرفة الحمام ونزع الزهرة من عمامته وعلقها فى قلنسوته الجديدة، ومن العجيب أنه وجدها لاتزال محتفظة برونقها وعطرها.

ولما أتم لبسه خرج من الغرفة فوجد الخدم ينتظرونه فى غرفة مجاورة. فقادوه إلى الدهليز ثم إلى الإيوان الذى مر فيه أولا فإذا ميروت هناك تنتظره مع سيدة أخرى.

فتقدم كريم الدين نحوهما، وانحنى فى أدب، وتقدمت ميروت نحوه قائلة: هذه أمى.

فركع كريم الدين على ركبتيه وقبّل يد الملكة، فظهر على وجهها ارتياح عظيم وقالت له: إنك قد أصبحت ولدى.

فأعاد كريم الدين الانحناء قائلا: إننى سعيد يا مولاتى أن أكون موضع عطفكم.

وأحس عند ذلك أن ميروت قد صارت كأنها أخته الصغيرة حقًا وكأنها

كانت معه منذ ولدت. والتفت إليها قائلا: أشكرك أيتها الأخت العزيزة.

فقالت له ميروت ضاحكة: هل أعجبتك هذه الثياب؟

فنظر كريم الدين إلى نفسه ومد يديه بكميها الطويلين وقال: كان من حسن حظى أن هذا الحجم موجود هنا.

فضحكت ميروت قائلة: لم يكن موجودًا منذ ساعة.

فعظمت دهشته وقال: هذا عجيب.

فقالت الملكة: هل أدهشك هذا؟ لقد ذهب أحد الصناع فصنعها. هذا أمر لا يدعو إلى الدهشة.

فقال كريم الدين: إنه خياط ماهر بغير شك.

فضحكت ميروت حتى علا صوتها وقالت: ما معنى خياط يا كريم الدين؟ ليست هذه الملابس إلاّ عجينة توضع فى قوالب. والقوالب تَصَبّ فى أحجام صغيرة أو كبيرة كما تشاء.

فنظر كريم الدين إليها باسما، وحسب أنها تمزح. ولكنه رفع كمه إلى عينه ليبحث عن أثر للخياطة فلم يجد لها أثرًا. ولم يشأ أن يطيل الحديث أمام الملكة أو يظهر الدهشة أكثر مما فعل، فقال لميروت: إنها ملابس بديعة يا مولاتى العزيزة.

فقالت ميروت مبادرة: لا تقل لى «يا مولاتى» قل يا أختى . قل يا ميروت .

فقال كريم الدين باسمًا: أشكرك من أعماق قلبى يا أختى.

وأحس عند ذلك قلبه يمتلئ حبًا لها. حبًا لم يشعر بمثله فى حياته لأحد من أهله أو أحد من الناس.

وضحكت الأم وقالت ناظرة إلى ميروت: أظنه يحتاج إلى الطعام قبل أن ينام. وعليك يا ميروت أن تنظرى فى شئون أخيك بنفسك.

ثم انحنت باسمة إلى كريم الدين، فركع الفتى فى خشوع، وضم ذراعيه على صدره قائلا: فى حفظ الله يا مولاتى.

وسارت الملكة نحو غرفتها وذهبت ميروت وكريم الدين إلى غرفة أخرى فيها مائدة من الصخر الوردى، عليها ألوان من الطعام فى أطباق من البلور وقالت له: هذا طعامك يا كريم الدين. وأما أنا فقد سبقت إلى عشائى.

ولم يكن كريم الدين فى حاجة إلى من يدعوه إلى الطعام، فإنه لم يذق منذ الصباح سوى قطعة من جوز الهند. وجلس على كرسى لونه وردى مثل لون المائدة وأقبل على الطعام.

وكان الطعام ألذ ما ذاقه كريم الدين فى حياته. كان لا يشبه شيئًا من طعام بغداد أو غير بغداد، فلا هو باللحم ولا هو بالبقل ولا هو بالفاكهة. ولكنه كان أشهى من كل لحم وبقل وفاكهة. وكانت له رائحة تفوق العطر فى لذتها.

ولما فرغ من طعامه أحس النوم يملأ جفنيه، وخجل من نفسه عندما خفق برأسه فى حضرة الأميرة ميروت وهى تحدثه. فقامت الأميرة واستأذنت فى الذهاب إلى غرفتها، وذهب كريم الدين إلى الغرفة التى أعدتها له أخته، فمال على سريره الأزرق الصافى، وتغطى بملاءة لونها مثل لون السرير، واستغرق فى النوم بعد لحظة، فلم يفق إلا فى المساء التالى. وكان نور القمر يملأ أرجاء الجزيرة عندما خرج فى صحبة أخته ميروت للنزهة.

٩

قضى كريم الدين فى الجزيرة عدة أشهر ولم يشعر بمرور الأيام فى صحبة أخته ميروت. فكانت تطلعه على ما فى الجزيرة من عجائب لا تخطر على بال أحد من بنى الإنسان، وتُوَفر له كل أسباب السعادة فى نزهات على شواطئ البحر وبين سفوح الجبل. وكانت تقيم حفلات الليل إذا سطع القمر، وتخرج به أحيانًا إلى بعض الجزائر القريبة فى قوارب عجيبة الصنع، من قماش منفوخ تملأ جدرانه بالهواء فيسير فوق الأمواج خفيفًا، وتدفعها آلات صغيرة من صناعة المهرة من صناع الجزيرة.

وكانت تنزل أحيانًا فى البحر بملابسها - وهى من قماش لا يشرب الماء - فتغوص إلى أعماقه مدة طويلة ثم تخرج منه حاملة معها أنواعًا من الأصداف واللآلئ، فقد كانت ميروت تستطيع هى وقومها جميعًا أن يعيشوا تحت الماء كما يعيشون فوق الأرض. وكان لهم فى كل سنة موسم ينزلون فيه جميعًا إلى قاع البحر ليقيموا هناك عدة أشهر إذا أتى الصيف بحره الشديد.

وتعلم كريم الدين فى هذه المدة فنونًا عدة أخذها عن العلماء وكبار الصناع، فقد اتصل بهؤلاء جميعًا بفضل أخته ميروت، وصاروا يُرَحبون به أينما حل، ويطلعونه على ما عندهم من الأسرار. ومن عجيب أمر هؤلاء أنهم يتوفرون على بحوثهم ومصانعهم فيأتون فيها بما يبهر العقول من العجائب التى تفوق السحر فى روعتها. كانت مصانعهم ومعامل بحوثهم

موزعة فى كهوف الجبل، وكان كريم الدين إذا دخل إليها رأى الأشخاص الصغار الأجسام وهم يعملون كالنحل أو يتعاونون كالنمل، فيصهرون المعادن ويصنعون منها الآلات الدقيقة ويَعكفون على البحث ليظهروا من أسرار الطبيعة ما خفى عنهم. وكان يقضى بعض الأوقات مع أرمنا الحكيم، وقد دعاه مرة إلى زيارته فى معمله فذهب إليه، وكان الحكيم مع جماعة من أصحابه الذين يُطلق عليهم لقب «سدَنة اللهيب المقدس». وكان هؤلاء هم أعلى العلماء شأناً فى شعب سفروت يقضون كل حياتهم فى الكشف عن أسرار الكون ويعيشون فى كهفهم منعزلين عن الحياة، لأنهم وقفوا كل عمرهم على خدمة السر الأعظم الذى يرمزون إليه بلفظ «اللهيب المقدس».

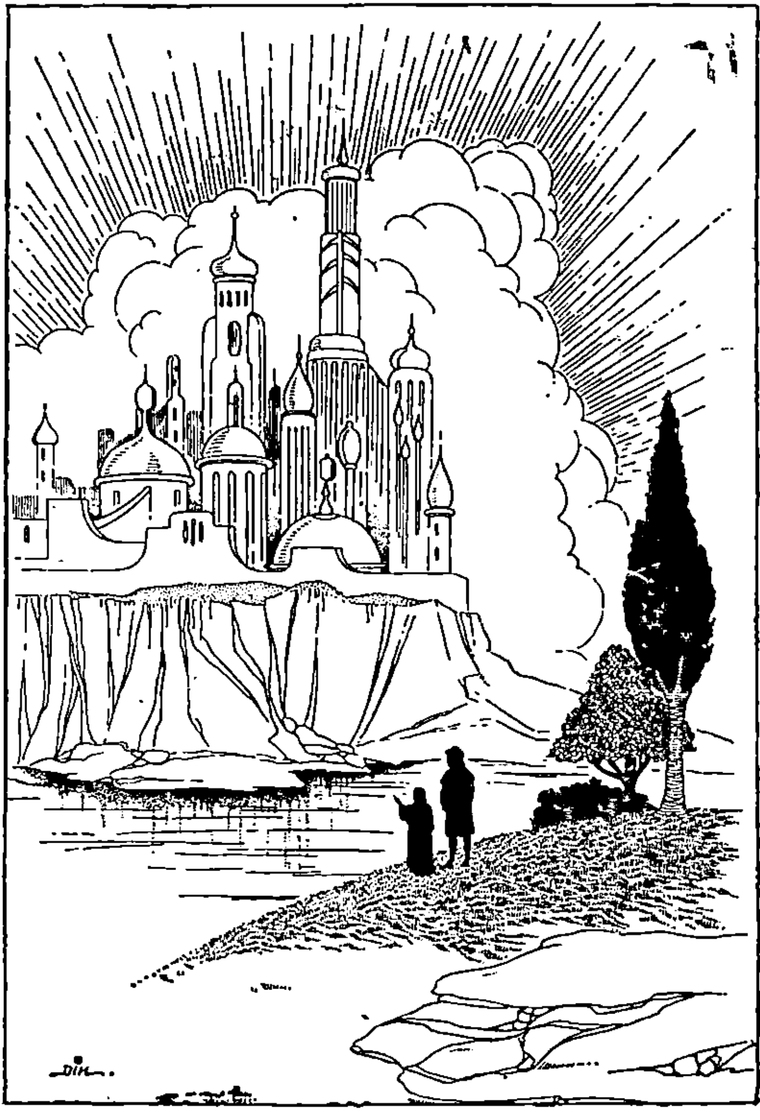
وقد أدخله الحكيم إلى حجرات كثيرة تحتوى على أنواع لا حصر لها من الآلات العجيبة التى لا يُباح للعامة أن يطلعوا عليها، لأنها من الأسرار المقدسة. فإن هذه الآلات يمكن أن تُستخدم فى الخير كما يمكن أن تستخدم فى سبيل الشر. فهى تهب الصحة والقوة والحياة، كما أنها تستطيع أن تسبب الدمار والخراب والهلاك. ولذلك كان الحكماء يحتفظون بأسرارها حتى لا يُسيء أحد استعمالها. وهؤلاء السدنة هم ورثة أجيال كثيرة من الحكماء، وقد ورَثوا العلوم عن آبائهم وأجدادهم، وعليهم أن يورّثوها لأبنائهم ويأخذوا عليهم المواثيق بالمحافظة عليها والإخلاص لها.

وكانت بينهم عقيدة شائعة وهى أن أول سادن للهيب المقدس هو الملك سليمان الحكيم، الذى استطاع أن يسخر الإنس والجن ويجعلهم يبنون له الهياكل والقصور، وينحتون الحصون فى صميم الصخر، ويأتون فى ذلك كله بآيات من الإبداع الفنى. وكان كريمالدين يزداد كل يوم إيماناً بأن هذه

الجزيرة التى يقيم بها شعب سفروت ما هى سوى جزيرة سليمان التى تحدّث عنها حسن البصرى فى كتابه والتى خرج الحاج خليفة فى طلبها، وكان كلما تذكر صديقه المسكين حزن حزنًا شديدًا لفراقه، وتمنى لو كان على قيد الحياة حتى يتاح له أن يراه مرة أخرى، فيحدثه عن تلك الأرض التى كان هو يحلم بزيارتها. وكانت الحياة فى الجزيرة متوقفة على هؤلاء العلماء، وجهودهم فى المبتكرات، لأنهم كانوا يستخدمون كل الأسرار التى يهتدون إليها فى خدمة إخوانهم من أهل سفروت. ولهذا استغنى ذلك الشعب الهادئ الوديع عن الاشتغال بالأعمال الشاقة التى يشتغل بها بنو الإنسان المساكين من زرع فى الحقول وحمل للأثقال، بل لقد أغنتهم هذه الأسرار عن القسوة، فهم لا يقتلون الحيوان لأكل لحمه، حتى الأسماك التى فى البحر كانت آمنة فى جوارهم. وكان كل طعامهم من الفواكه والبقول التى كانت تنمو نموًا سريعًا قويًا فى سهول الجزيرة وأودية الجبل، بفضل المبتكرات العلمية فى الزراعة، وكانت ملابسهم العجيبة تصنع - كما عرف كريم الدين منذ أول يوم حل فيه بالجزيرة - من عجينة مُدبرة تدبيرًا علميًا، وتصب فى قوالب كما يشاء الصانع أن يصورها.

ولهذا كله أمكن شعب سفروت أن يوفر كل وقته للفنون والتفكير، والتمتع بالحياة السعيدة التى لا تشوبها قسوة ولا جشع. وكانت أكبر لذاتهم عبادة خالق الكون الذى له الفضل كله فى خيرات العالم، وفى تدابير الحياة. وفى توجيه الذكاء نحو الخير. فهو صاحب الملكوت الأعظم الشامل للسموات والأرضين وهو مُصرف القلوب وهو الخير الأسمى.

ولم تخلُ هذه الحياة من التأثير فى كريم الدين فعكف على تعلم بعض الفنون، ولكنه لم يقدر على مسايرة العلماء فى بحوثهم، فاكتفى بصناعة



التماثيل من الصخر الشفاف، وعلمته أخته كثيرًا من طبائع الطيور والأسماك والحيوان ليتمكن من دقة تصويرها، وكان يعجب عندما يرى كل الكائنات الحية أليفة وديعة لا تنفر ممن يقترب منها، لأن السلام الشامل قد جعلها جميعًا تطمئن إلى معاملة بعضها بعضًا. ولم يكن فى الجزيرة كلها حيوانات مفترسة تسفك الدماء، بل كان كل حىّ هناك يعيش على خيرات الخالق بغير إيقاع الأذى.

فاتخذ كريم الدين له غرفة خاصة، كان يصنع فيها تماثيله، وأصبح قادرًا على أن يصور من الصخر قطعًا فنية يُخيَّل إلى الناظر إليها أنها حيوان حىّ أو نبات يتمايل مع هبوب النسيم. فإذا أحس تعبًا أخذ آلة موسيقية وعزف عليها بعض الألحان التى تعلمها من ميروت، فيزول عنه التعب ويحس أعظم السعادة تغمر نفسه.

وكان يخرج أحيانًا فى نور الشمس فيجول وحده فى النهار - لأن ميروت وكل شعب سفروت كانوا لا يحبون أن يجولوا فى نور النهار - فأتاحت هذه الجولات له فرصة التمتع بالرياضة. وكان ينزل إلى البحر أحيانًا فيسبح فى مائه الصافى، أو يجول فى بعض الغابات فى أعلى الجبل، ويتأمل ما فيها من شجر وزهر، وما ينبع فى أرضها من عيون بعضها ساخن وبعضها بارد.

وفى يوم من أيام الشتاء دعته ميروت إلى الخروج معها، وكانت السحب تغطى وجه السماء، ولكن الهواء مع ذلك كان دافئًا مثل جوّ الربيع. ولم تخرج به ميروت من الباب الكبير، بل اتجهت به إلى دهاليز تؤدى إلى باب خلفى للقصر. ومازالا سائرين حتى خرجا إلى فضاء واسع وقالت له ميروت: سأطلعك اليوم على بعض أشياء جديدة.

فقال كريم الدين فى سرور: لقد تعودت كلما سرت معك أن أرى شيئًا جديدًا.

فقالت ميروت: ألا تذكر أنك أردت أن ترى مخازن المؤونة.

فصاح كريم الدين ضاحكًا: أشكرك يا أختى فإنك لم تنسَىْ.

فقالت ميروت: لم أنسَ يا أخى، ولكنك تعرف أننى لا أقدر على الخروج فى ضوء النهار.

فنظر كريم الدين إلى السماء الملبدة بالغيوم وقال: لقد كنت أتطلع دائمًا إلى رؤية هذه المخازن.

فقالت ميروت: أظنك لم تصدق بعد بأنها حقيقية.

فقال كريم الدين: لا تؤاخذينى أيتها الأخت العزيزة إذا كنت لا أقدر على تَصوُّر ما قلته لى. فكيف يمكننى أن أتصور عينًا ترى أصغر الأشياء فى طرف الأرض البعيد؟ وكيف أتصور أن هناك خوذة توضع على الرأس فتخفى لابسها عن الأنظار؟ وكيف أعقل أن فى الإمكان وجود بساط يطير فوق الريح! أو أن هناك أذنًا تسمع الهمس فى أبعد البلاد؟ إذا كانت هذه الأشياء تكتب فى القصص فإنها بعيدة عن الوجود فى الحقيقة.

فقال ميروت باسمة: أتؤمن إذا رأيتها؟

فقال كريم الدين: بغير شك يا سيدتى.

فقالت ميروت: أتقول لى «يا سيدتى» مرة أخرى؟

فقال كريم الدين باسمًا: لا تؤاخذينى يا أختى. نعم أؤمن إذا رأيت هذه العجائب بعينى يا أختى.

فقالت ميروت: ولكنى أذكرك بوعدك قبل أن تصل إلى المخازن.

وكانا قد بلغا فى السير إلى بستان عظيم يشبه الغابة الواسعة، وكان مُغَطىً بأشجار مختلفة الأصناف تحمل من الفواكه ما لا حصر لأنواعه.

فقال كريم الدين وهو يتأمل الأشجار: وما ذلك الوعد يا أختى؟

فقالت ميروت: أنسيت وعدك؟

فقال كريم الدين وهو ينظر إليها: هل وعدتك بشىء؟ إنى آسف لأنى لا أذكر ذلك يا أختى.

فقال ميروت باسمة: بل وعدت أبى.

فقال كريم الدين وهو يحاول أن يتذكر: أنا وعدت مولاى الملك بشىء؟

فقالت ميروت: ألا تذكرُ أول يوم جئت فيه؟

فصاح كريم الدين: نعم يا أختى، أظنه حدثنى عن شىء أسود. نعم هو طير أسود، وسوف أقتله إذا رأيته.

فضحكت ميروت قائلة: إنك ضعيف الذاكرة. وعلى كل حال فقد نسيت أيضًا أننا لا نقتل الحيوان فى هذه الجزيرة.

فقال كريم الدين: ألا تقتلون ما يؤذيكم؟

فقالت ميروت: نستطيع أن نمنع الأذى بغير قتل. ويخيل إلىّ أنك تسرعت فى وعدك لأبى.

فخجل كريم الدين، وأخذ يستعيد ذاكرته حينًا، ثم صاح قائلا: نعم أذكر الآن، أذكر أننى وعدت مولاى الملك ألا أطيع الطائر الأسود. وإن كنت لا أدرى كيف أطيع طائرًا. فهل يستطيع الطير أن يأمرنى؟

فقالت ميروت: الآن قد تذكرت. هو طائر أسود فى ظاهره، ولكنه ملك من ملوك الجن. هو عدو والدى وعدو شعب سفروت. وإذا وقعت عينه عليك فلابد أنه سوف يوسوس لك.

فضحك كريم الدين قائلا: إن طائرًا لا يخيفنى، ولو كان من الجن يا أختى. ولن أطيعه إذا حاول أن يوسوس لى.

وكانا قد دخلا بين الأشجار الخضراء، وفواكهها تتدلى ناضجة تفوح برائحتها الزكية، وكانت جداول من الماء الصافى تجرى بينها. فجعل كريم الدين يقطف من الفواكه ويذوقها، ثم يغسل يديه فى الجداول ويشرب من مائها، فيجد طعمه حلوًا كأنه شراب مصفى. وكان كلما أعجبته فاكهة سأل عن اسمها فتضحك منه ميروت قائلة: هل يزيدك الاسم معرفة بها؟

فقال كريم الدين: إنى أسأل عن أسمائها لأن عندى فكرة.

فقالت ميروت: أتريد أن تتَّجر فيها؟

فقال كريم الدين: لست أطمع فى هذا لأن شعب سفروت لا يشترى الفاكهة.

فقالت ميروت: ولماذا يشترى الفاكهة وهو يقدر على أخذ ما يريده منها بغير شراء؟

فقال كريم الدين: إننى لم أر أحدًا يأكلها.

فقالت ميروت ضاحكة: ألم تر أحدًا يأكلها؟ ألم تأكل اليوم منها؟

فقال كريم الدين: نحن؟ نحن أكلنا اليوم فاكهة؟

فقالت ميروت: وماذا أكلنا إذن؟ هل نسيت؟

فقال كريم الدين: لعلك أنت نسيت يا أختى. لقد أكلنا لحم طير وضأن بغير شك.

فضحكت ميروت حتى لم تستطع الاستمرار على السير وقالت: إنك لاتزال تنسى. وكيف تأكل الطير أو الضأن ونحن لا نقتل الحيوان؟

فسكت كريم الدين لحظة ثم قال: ألا تقتلون الحيوان حقًّا؟

فقالت ميروت: ألم أقل ذلك من قبل؟ أظنك لم تصدقنى.

فقال كريم الدين: حسبت أنكم مثلنا. نحن نقول إننا لا نحب القتل ولكنا مع ذلك نقتل.

فضحكت ميروت وقالت: لابد أنكم مضحكون فى بلادكم.

فقال كريم الدين: إذن فماذا أكلنا اليوم إذا لم يكن لحمًا؟

فقالت ميروت: ما أكلنا إلا فاكهة.

فوقف كريم الدين مبهوتًا من الدهشة، فقد مضى ذلك الزمن كله وهو يحسب أنه يأكل كل يوم طعامًا عاديًا من اللحوم والخضر. وكان مذاق الأكل فى كل يوم لا يختلف عن ذلك إلا بأنه ألذ وأشهى وأطيب رائحة.

وكانت ميروت قد سبقته فى سيرها، فذهب إليها كريم الدين فوجدها واقفة أمام جدار شفاف لم يفطن إلى وجوده من قبل. ووجد أنها تدير آلة فى ذلك الجدار، فإذا به يرى بابًا ينفتح ببطء فصاح قائلا: هذا شىء يشبه السحر.

فقالت ميروت: إنه باب وهذا مفتاحه. ألا ترى؟

ودخلت من الباب قبل أن يجد كريم الدين فرصة للجواب، وقالت له:

سأريك الآن بعض الآلات التى لا تصدق أنها حقائق. إنك لا تؤمن يا أخى حتى ترى بعينيك.

ودخل كريم الدين فى دهليز طويل من الصخر الشفاف ونور النهار ينفذ إليه ضعيفًا رقيقًا.

ووقفت ميروت بعد قليل عند آلة مثبتة فى الجدار وحرّكتها فانفتح باب يشبه الباب الأول، وكريم الدين يحسب نفسه فى حلم، وانعقد لسانه من الدهشة، فلم يسأل ميروت سؤالا.



١٠

كانت أول حجرة فتحتها ميروت مخزنًا للخوذة الخفية. كانت الغرفة من الصخر الأبيض الشفاف، وكان نور الشمس ينفذ من جدرانها ضعيفًا، ونظر كريم الدين باحثًا عن الخوذة الخفية فلم ير شيئًا. غير أن أرض الغرفة كانت تبدو أمام عينيه كأنها سلسلة من حُفر مستديرة عميقة. ومدت ميروت يدها نحو إحدى تلك الحفر ثم رفعت يدها إلى رأسها فغابت عن نظر كريم الدين فجأة. فخشى كريم الدين أن تكون قد سقطت فى الحفرة. وصاح فى فزع شديد: ميروت! ميروت! أين أنت؟ أين أنت؟

واندفع كالمجنون يطل من الحفر التى أمامه. ولكنه سمع ضحكة ميروت فاطمأن وقال: أرجوك أن تظهرى أمام عينى، فإن قلبى انخلع من صدرى.

فزاد ضحكها وظهرت فجأة واقفة أمامه على بعد خطوة واحدة.

فضحك كريم الدين وقال لها: لقد تعلمت السحر بغير شك.

فمدّت ميروت يدها إليه قائلة: خذ هذه وضعها فوق رأسك.

فقال كريم الدين: ماذا تريدين أن آخذ ولست أرى شيئًا. بل إنى لا أرى يدك. أين ذهبت يدك يا ميروت؟

فقالت ميروت: ألم أقل لك إنها الخوذة الخفية؟

فمد كريم الدين يده فأحس أنها تلمس جسما رخوًا فوضعه على رأسه وضحك قائلا: ألست ظاهرًا أمامك يا ميروت؟

فقالت ميروت: لست أرى أمامى شيئًا.

وأحس كريم الدين عندما وضع الخوذة فوق رأسه أن هزة تدب فى جسمه. فرفعها عن رأسه وأراد أن يرى شكلها فلم يرها، بل إنه لم يرَ يده التى تمسكها. فخاف ورمى بها إلى الأرض فسمع صوتًا يشبه حفيف الورق، ورأى كأن حفرة فى الأرض فتحت قرب قدميه.

فأسرع خارجًا من الغرفة كأنه يريد الهرب من ذلك المنظر الذى لم يألفه، وضحكت ميروت وسارت وراءه وأغلقت الباب بالطريقة التى فتحته بها، واتجهت فى الدهليز الطويل نحو الباب المجاور، ففتحته بالطريقة نفسها، ودخلت إلى الغرفة الثانية. وسار كريم الدين وراءها مُتلهفًا على رؤية أعجوبة جديدة.

وكان فى الغرفة آلات صغيرة على رفوف منحوتة فى الصخر، فأخذت ميروت منها آلة، وحركت فيها زرًّا صغيرًا، فإذا بها تنطق وتخرج أصواتًا غير مفهومة. فصرخ كريم الدين ووثب فزعًا، فأسرعت ميروت فأدارت الزر فسكت الصوت، والتفتت إليه قائلة: ما الذى أفزعك هكذا يا أخى؟ ألم أخبرك أنك سوف ترى أذن السمع؟

فقال كريم الدين: ولكن هذه آلة تتكلم. كان أولى بها أن تسمى اللسان الناطق.

فقالت ميروت: صدقت يا كريم الدين. ولكنك تحرص على الدقة فى الأسماء دائمًا. هذه الآلة تلتقط الأصوات من أقصى الأرض، فهى فى الحقيقة أذن تسمع، ولكنها فى الوقت نفسه لسان ينطق.

وأدارت الزر مرة أخرى، فنطقت الآلة بأصوات مختلفة وموسيقى، وكلما أدارته دورة تغيرت الأصوات المسموعة والموسيقى. ثم مازالت تدير الزر

حتى سُمع صوت رجل يتكلم كأنه جلس فى قاعة مجاورة. فعرف كريم الدين الصوت وصاح: أليس هذا الشيخ النَّجفيّ؟

فقالت ميروت: أغلب ظنى أنه هو، فهذه الأصوات آتية من بغداد.

فامتلأ قلب كريم الدين حنينًا إلى بلاده وقال لميروت: أرجوك يا أختاه ألا تديرى هذا الزر حتى أسمع بقية حديثه.

واستمر يستمع إلى الرجل حتى فرغ من الحديث فتنفس نفسًا عميقًا وقال: هل لك أن تعطينى إحدى هذه الآذان؟

فقالت ميروت: لتستمع إلى بغداد كل ليلة؟

فقال كريم الدين فى تأثر: نعم لأستمع إلى بغداد.

فسألته ميروت: لعلك كنت سعيدًا هناك. إنك تحب بغداد.

فقال كريم الدين: بل كنت هناك أشقى الناس. ولكنى لا أملك إلا أن أحب بغداد. إنها وطنى.

فهزت ميروت رأسها وقالت: سوف أطلب لك الإذن من أبى يا كريم الدين. لست أقدر على أخذ شىء إلا إذا أذن أبى.

ثم خرجت وأغلقت الباب وسارت نحو الغرفة التالية. وكانت فيها آلات أخرى لا تشبه الأولى فى شىء، بل كانت الآلة منها لا تزيد على دائرة صغيرة تشبه المرآة. فرفعت ميروت إحداها إلى عينها، ونظرت إلى أعلى نحو السماء وقالت: هذه هى النجوم تبدو أمامى واضحة.

وكانت الشمس تلمع فى السماء، فصاح كريم الدين: أهذا ممكن؟ فرفعت ميروت الآلة عن عينها وقالت له: ضعها فوق عينيك وانظر إلى السَّماء.



وما كاد الفتى ينظر إلى السماء حتى صاح: إن هذه عين مدهشة.

فقالت ميروت: وتستطيع أن ترى فيها أصغر الأشياء فى طرف الأرض البعيد.

فقال كريم الدين: وهل أقدر أن أرى بها بغداد؟

فقالت ميروت: إذا كانت بغداد على طرف الأرض.

فقال كريم الدين: أليست الأرض واحدة وبغداد فيها؟

فضحكت ميروت وقالت: لقد سافرتَ يا كريم الدين فى البحر، وتنقلتَ من أرض إلى أرض. ألم تر فى كل يوم طرفا جديدًا للأرض؟

فقال كريم الدين: أتقصدين الأفق؟

فقالت ميروت: نعم هو الذى تسمونه الأفق. فهذه العين ترى بغداد إذا بدت عند الأفق. ألا تحب أن تكون لك واحدة من هذه الأعين.

فقال كريم الدين فى أسف: ولكنى لن أرى بغداد بها.

فسارت ميروت ذاهبة إلى الغرف التى تلى تلك، وأطلعت كريم الدين على آلة بعد آلة، وكل واحدة منها تزيد غرابة على ما سبقها، حتى خيل إليه أن كل شىء ممكن فى هذه الجزيرة المدهشة. فقد رأى آلة إذا وضعت على الجسم كشفت ما بداخله من الأعضاء، ورأى أخرى إذا وضعت عليه أظهرته مثل الهيكل العظمى الذى لا لحم فوقه، وآلة ثالثة إذا وضعت على جسم أحرقته بغير نار، وأخرى إذا وضعت على جسم أرعدته من البرد، أو أشاعت فيه حرارة شديدة. وكان من أعجب ما رآه كريم الدين آلة إذا وضعت فيها حبة من القمح نمت سريعًا حتى تخرج سنابلها وتنضج فى يوم واحد، وأخرى إذا وضع فيها بيض الدجاج بضع دقائق خرجت منه

الفراريج. وبالجملة قد رأى كريم الدين فى تلك المخازن ما لا يجعل فى الحياة شيئًا مستحيلا.

ولما بلغت ميروت غرفة البساط الطائر قالت لكريم الدين: أظنك قد تعبت اليوم يا أخى، وليس هذا البساط بشىء يستحق أن تراه.

فقال كريم الدين: أى بساط هو؟

فقالت ميروت: هو البساط الطائر.

فقال كريم الدين: لا شك أنه شىء مدهش.

ففتحت ميروت الغرفة قائلة: ألا تحب أن تخرج عليه فى نزهة؟

فقال كريم الدين: أبدًا. إننى لا أستطيع الصعود فوق مئذنة.

فقالت ميروت باسمة: ألا تعتقد أن العمر واحد؟

فقال كريم الدين: لو كان لى عمران لخاطرت بواحد منهما.

فقالت ميروت: إذن فلا حاجة بنا لرؤية البساط الطائر. وما فائدة رؤيته إذا لم تحلق به فى الجو؟

فقال كريم الدين: إنه شىء عجيب. أحب أن أراه طائرًا.

فقالت ميروت: هو لا يطير وحده. لابد له من راكب.

فقال كريم الدين: أتركبين معى؟

فقالت ميروت ضاحكة: لكى نموت معًا إذا سقط بنا؟

فقال كريم الدين فى خجل: أظنه لا يسقط إذا ركبت معى فوقه.

فدخلت ميروت عند ذلك إلى المخزن وأخذت بساطًا وقالت لكريم الدين: اسطحه على الأرض واركب.

وعند ذلك تردد كريم الدين وقال: أظن الوقت قد تأخر بنا اليوم.

فضحكت ميروت حتى دمعت عيناها من شدة الضحك وقالت: إذًا فلنؤجل الركوب إلى يوم آخر. حقًا إن الوقت قد تأخر بنا.

ورفعت يدها إلى أعلى فمد كريم الدين يده وأمسك بها وخرجا عائدين من حيث أتيا. وسار كريم الدين صامتًا يفكر فيما رأى فى تلك الجولة التى لم يكن يتصور أن ما رآه فيها ممكن فى عالم الحقيقة. وبدا له شعب سفروت عند ذلك أعجب شعب يعيش على وجه الأرض. إنه يستطيع أن يأتى بالمعجزات.

١١

جاء فصل الصيف وانقشعت السحب عن وجه السماء وزهت الشمس بأشعتها اللامعة من الصباح إلى المساء. واستعد شعب سفروت على عادته كل عام للنزول إلى مصيفه فى قاع البحر حيث كانت أشعة الشمس لا تنفذ إلى كهوف الأعماق.

وودّع كريم الدين أخته ميروت كما ودع الملك والملكة والآخرين جميعًا. وكان وداعه مؤثرًا حتى إنه لم يملك عينيه من البكاء.

وأرادت ميروت أن تخفف عنه حزنه فقالت له ضاحكة: وما يبكيك يا كريم الدين؟ تعال معنا لنقضى صيفًا جميلا.

فتبسم كريم الدين ابتسامة ضعيفة وقال: ليتك تعرفين مقدار حزنى أيتها العزيزة.

فجعلت ميروت تحدثه عن قاع البحر وكهوفه، وكيف يبدو سطح الماء من أسفل كالسماء الزرقاء الصافية. كما حدثته عن حيوان الماء وأصنافه التى لا حصر لها، وعن أصداف اللؤلؤ وشعاب المرجان، وعن الأسماك الزرقاء والحمراء وكيف تختبئ بين شعاب المرجان الملونة، ثم حدثته كيف تجلس هى وأصحابها فى أوقات الظهر عندما تنفذ أشعة الشمس الرفيعة إلى الأعماق ليستمعوا إلى أغانى عرائس الماء. ومازالت معه فى مثل هذه الأحاديث حتى سُرى عنه. ولما حانت ساعة النزول قالت له: يمكنك أن

تقضى الوقت فى النزهة وعمل التماثيل ولك أن تتسلى بالموسيقى. ومن السهل عليك أن تقضى أوقاتًا سعيدة بين الشاطئ والجبل والغابة.

فقال كريم الدين: لست أدرى هل ينبعث السرور إلى نفسى وأنت بعيدة ؟

فقالت ميروت: ويمكنك أن تخاطبنى إذا شئت فى آلة الصوت البعيدة التى أهديتها لك، ويمكنك أن تسمع صوتى فى أذن السمع التى عندك، وأن ترانى إذا شئت وعندك عين الكشف. وسأقف كل يوم تحت الماء بقرب الساحل لكى ترانى.

فأطرق كريم الدين حينًا ثم مد يديه نحوها فرفعها إلى قرب وجهه وقبلها فى جبينها قبلة أخوية. فهمست له ميروت: أحذرك مرة أخرى يا أخى. لا تذهب إلى خزائن الذخيرة. ثم أحذرك من الطائر الأسود.

فقال كريم الدين: لا تخافى يا أختاه، فإنى أحفظ وعدى.

ثم أعادها إلى الأرض، ووقف ينظر إليها وهى تشير إليه بيدها وداعًا، وحاول أن يودعها بكلمات مَرحة ضاحكة، ولكن الدموع غلبته فاكتفى بأن يشير إليها بيده اليمنى لأنه كان يمسح دموعه باليد الأخرى.

ولما نزلت ميروت فى الماء وقف كريم الدين حينًا على الشاطئ حائرًا ضيق النفس وشعر بوحشة عظيمة جعلت النهار يظهر فى عينيه مظلمًا كالليل، وقضى ما بقى من ساعات النهار قرب الشاطئ يسير حينًا ويجلس حينًا والدموع تغالبه بين وقت وآخر. فلما غَرَبت الشمس عاد يجُر رجليه سائرًا نحو القصر حتى إذا بلغه ارتمى على أقرب مقعد خائر القوى وعاد إلى البكاء.

١٢

طالت الأيام والليالى على كريم الدين بعد فراق أخته ميروت، وبَقِى وحده يذهب كل يوم إلى الجبل والغابة، ويجول فى الكهوف وعلى شاطئ البحر، ثم يعود فى الليل إلى القصر فتساوره الأفكار ولا تترك له إلى النوم سبيلا. ولم يخمد شوقه إلى ميروت بالأحاديث التى كان يتحدث بها إليها فى آلة الصوت البعيد، ولا بالنظر إليها فى عين الكشف، ولا بسماع صوتها فى أذن السمع، وشعر بأنه مقيم فى سجن شديد موحش.

ومن عجيب أمره أنه مع شدة شوقه إلى ميروت ووحشته منها، شعر كذلك بحنين إلى وطنه. فكان يجلس فى كثير من الأحيان إلى جانب أذن السمع، ويقضى وقتاً من الليل فى سماع أصوات الناس فى طرق بغداد ومساجدها، وكان يجد فى ذلك أنسًا عظيما. وكان شوقه وحنينه إلى وطنه يزيدان يومًا بعد يوم، حتى مضى شهر خيل إليه أنه دهر طويل.

ومن العجيب أنه نسى كل ما لاقاه فى بغداد من الشدائد، وما قاساه من الفقر والحرمان والاحتقار، وصار لا يذكر من حياته الأولى سوى مناظر شواطئ دجلة الجميلة، ومشرق الشمس على الحقول الخضراء، والبساتين المزدهرة، ومغرب الشمس على رؤوس النخيل والأشجار التى تزين الحقول.

ومازالت هذه الأفكار تعاوده كل يوم وكل ليلة حتى ضاق صدره من

الإقامة، وتمنى لو مرت به سفينة عابرة فى البحر فتنقذه من وحدته ، وتحمله من ذلك المنفى البعيد عائدة به إلى وطنه المحبوب.

فكان كلما خرج إلى شاطئ البحر تلفت فى أطراف الأفق لعله يعثر على شراع سفينة تقترب من الشاطئ لكى يشير إليها بالاقتراب، ويخوض البحر أو يسبح فوق الموج حتى يصل إليها ويتعلق بها.

ولكن ذلك كله ذهب أدراج الرياح، وكان فى كل مرة يعود بالخيبة إلى القصر، ويسير حزينًا بين الصخور الجميلة ذات الألوان الرائعة، فيراها فى نظره قبيحة مثل جدران السجون.

ولما زاد به الضيق أحب أن يذهب إلى خزائن المؤونة ليتفرج برؤية ما فيها. ولكنه تذكر تحذير أخته ميروت فقاوم ميله مرارًا، وكان فى كل مرة يعود فيسأل نفسه: «ما الضرر من ذلك؟» وأخيرًا وجد نفسه يسير فى الدهليز المؤدى إلى الباب الخلفى من القصر، ومازال حتى عبر البستان وبلغ دهليز المخازن، فجعل يفتح الأبواب واحدًا بعد الآخر فقضى يومًا فى رؤية ما هناك من الآلات، ووجد أن ذلك قد خفف من ضيقه، فعاد إلى القصر مبتهجًا فى تلك الليلة ونام إلى أن طلع الصباح.

ومنذ ذلك اليوم أكثر من التردد على مخازن المؤونة، وكان فى كل مرة يطلع على نوع جديد من العجائب التى تحير الألباب.

وخطر له يومًا أن يعرف موضع كنز سليمان، فسار إلى آخر الدهليز حتى بلغ الجدار الذى يصل بين المخازن وبين موضع اللهيب المقدس، ولكنه لم يهتد إلى باب المخزن الذى فيه الكنز. فزاده ذلك العجز ضيقًا، واشتدت رغبته فى الوصول إلى موضع ذلك الكنز، حتى اعتراه قلق شديد زاده اضطرابًا على اضطراب.

ومضى عليه شهر آخر وهو يحاول أن يصرف الملل والوحشة عن نفسه، ولكنه عجز عن ذلك حتى صار يكره الجزيرة وما فيها؛ وخطر له أن يذهب إلى مخزن بساط الريح فيأخذ منه واحدًا يطير به عن الجزيرة.

ولم يتردد فى تحقيق ذلك الخاطر، فذهب إلى المخزن وأخذ منه بساطًا وخرج به إلى البستان؛ وبدأ يفحصه لعله يجد فيه مفتاحًا أو موضعًا لزر يمكنه أن يحركه به، فلم يجد فيه شيئًا، لأنه كان لا يختلف فى ظاهره عن «سجادة» عادية مما يصنع فى «شيراز» أو «تبريز» أو «خراسان» فجعل يقلبه ويجسه فى غيظ، حتى يئس منه فرمى به إلى الأرض حانقًا. وما كان أشد دهشته عند ذلك إذ سمع صوتًا ينادى: «لبيك يا سيدى والسعد بين يديك. بماذا تأمرنى؟».

فوثب وهو فى مكانه من المفاجأة، وتلفت حوله فى فزع فلم ير أحدًا.. فقال فى نفسه إن هذا الصوت لابد آت من البساط. فثبت جأشه وقال: أريد أن أطير فى الجو إلى...

ولكن الخوف عاوده فتردد ولم يكمل الأمر، لأنه خشى أن يسقط به البساط وهو لم يجرب ركوبه. فقال بعد حين: أريد أن تطير بى فى الجو قليلا على مهلك، ثم تعود بى.

فسمع الصوت ينادى قائلا: لبيك يا سيدى والسعد بين يديك.

ففرش كريم الدين البساط على الأرض وجلس فوقه، وما كاد يستقر عليه حتى أحس أنه يتحرك به ويصعد فى الجو فى هدوء. وما هى إلا لحظة حتى كان يحلق به فوق قمة الجبل ويطير طيرانًا ناعمًا مطمئنًا.

واكتفى كريم الدين بهذه التجربة القصيرة فصاح قائلا: كفى كفى أيها البساط عد إلى الجزيرة على مهل كما صعدت.

ولكنه لم يسمع جوابًا. فخفق قلبه واضطرب، وكرر قوله للبساط في غضب وأخذ يصيح قائلا: قلت لك كفى. عد إلى الأرض سريعًا.

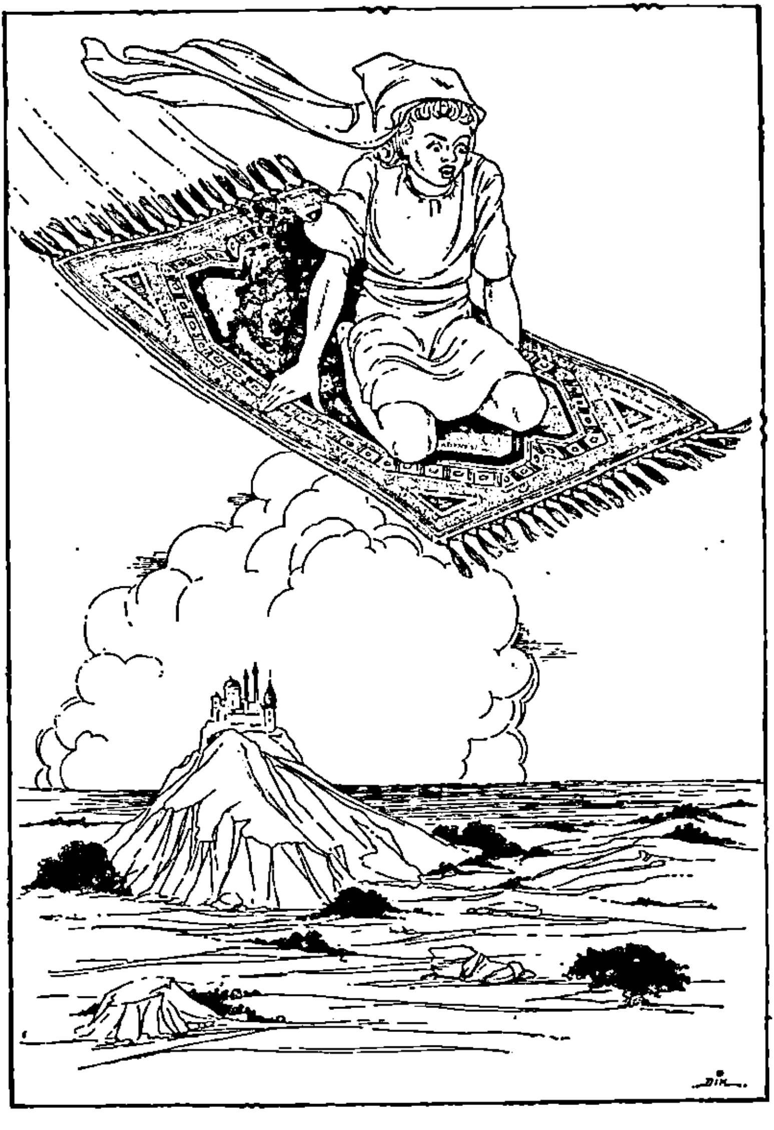
ولكن صوته ذهب مع الرياح ولم يسمع جوابًا.

فتذكر كريم الدين عند ذلك أنه لم يعرف السر الذى يجعل البساط ينطق مجيبًا قائلا: «لبيك». وندم على أنه أسرع بالصعود قبل أن يعرف موضع السر، واشتدت به الحيرة وتبلل جسمه عرقًا ومال على البساط يائسًا، وأمسك بأطرافه خوفًا من السقوط، ثم أقفل عينيه حتى لا يرى الفضاء البعيد الذى تحته. وفى أثناء ذلك قبض بيديه على أهداب البساط وتمسك بها تمسكًا شديدًا، فسمع الصوت يناديه فجأة: لبيك يا سيدى، والسعد بين يديك. بماذا تأمرنى؟

فصاح كريم الدين: أسرع بى إلى الأرض أيها البساط الأحمق.

فهبط البساط مسرعًا، حتى أحس كريم الدين أن قلبه يغوص فى قدميه. وما هى إلا لحظة قصيرة حتى عاد إلى البستان واصطدم بالأرض صدمة عنيفة ارتجّ لها رأسه وكاد يغمى عليه.

فوقف يتطوّح ولا تكاد رجلاه تحملانه، وجعل يمسح العَرَق عن جبينه، وسار يجر ساقيه، ورأسه يدور به، وجلس لحظة ليسترد هدوءه فى بقعة مفتوحة تحيط بها الأشجار من كل جانب، وروائح الفواكه العطرية تفوح مع هبات النسيم. وبعد مدة استطاع أن يستعيد قوته وهدوءه، فقام إلى الأشجار وجعل يقطف من فاكهتها ويأكل. وبينما هو فى ذلك أحس كأن سحابة مظلمة تظلل البستان. فرفع عينيه إلى السماء فإذا به يرى طيرًا عظيمًا أسود اللون، يشبه فى جسمه شكل النعامة، ولكن ذيله كان طويلا يبلغ قامة الرجل. وكان جناحاه العظيمان يشبهان شراع السفن، ومنقاره



كالسيف المقوس، وله مخالب تشبه مخالب الأسد.

فامتلأ قلبه رهبة، وحاول أن يجد مكانًا قريبًا يهرب إليه، ولكن كيف يقدر الإنسان البطىء على الهرب من طير يحلق فوق رأسه فى السماء؟ فاستسلم للقضاء وجلس هادئا فى مكانه لعل الطائر يبعد عنه.

ولكن الطائر نزل على الأرض قريبًا منه، وسار يهتز فى مشيته متجهًا إليه وهو يمسح منقاره بالأرض فى عنف.

ولم يكن كريم الدين يحمل سلاحًا، فأراد أن يلهى الطير بشىء، فرمى إليه بحبة من فاكهة لذيذة، ولكن الطائر لم يلتفت إليها، وسار حتى صار أمامه، ونظر إليه بعينيه اللامعتين نظرة قاسية. فاعتقد كريم الدين أنه قد عزم على افتراسه، وقام مستعدًا للدفاع عن نفسه بقدر الاستطاعة، ولكن الطير فتح منقاره المخيف، ورفع مخلبه الحاد مُهددًا. ورأى كريم الدين أنه لا يهاجمه بل يكتفى بالتكشير والتهديد، فوقف ينتظر ما هو فاعل. فهدأ الطائر وتراجع إلى الوراء قليلا، وعند ذلك سمعه كريم الدين يتكلم. نعم، كان الطائر يتكلم قائلا: لماذا تعادينى وقد جئت لأساعدك؟

فتشجع كريم الدين وقال: شكرًا لك. وكيف تساعدنى؟

فقال الطائر: ألا تحب أن ترى كنز سليمان؟

فقال كريم الدين مسرعًا: بغير شك.

فصاح الطائر: سر ورائى وأنا أدلك على خزانته.

واتجه سائرًا نحو مدخل دهليز المخازن، وسار كريم الدين وراءه مسرورًا فقد جاء إليه ذلك الطائر على غير انتظار ليساعده على رؤية كنز سليمان.



ولما بلغ الطائر الجدار الذى يحجب ما بين الدهليز وبين مكان اللهيب المقدس، وقف وجعل يرفع رأسه ويخفضه بسرعة، ويحك منقاره على الوجه الصخرى الصقيل. فتقدم كريم الدين إلى الجدار فوجده أمام عينيه قطعة واحدة من الصخر. وقال الطائر عند ذلك: ضع يدك هنا.

ولكن كريم الدين لم ير شيئًا. فصاح الطائر فى حنق: لا تُضيع الوقت فقد اقترب الليل. ضع إصبعك هنا حيث أشير بمنقارى.

فجعل كريم الدين يمر بيده وأصابعه على الموضع الذى أشار إليه الطائر بمنقاره، وأخذ يضرب عليه حينًا بقبضة يده وحينًا ينقر عليه بأظافره، حتى وجد موضعًا يلين تحت ظُفره، ثم إذا به يرى بابًا ينفتح فى بطء. فاندفع الطائر داخلا، وفى مثل لمح البصر خرج يحمل فى فمه الواسع شيئًا، وجرى فى الدهليز حتى خرج منه وطار فى الجو، وفى لحظة كان فى أعلى الجو كالسحابة السوداء.

وعند ذلك فقط تنبه كريم الدين إلى أنه الطائر الأسود. فكاد يقع على الأرض مصعوقًا. إنه الطائر الأسود الذى حذره منه الملك وحذرته منه أخته ميروت. لقد أطاعه وفتح له باب كنز سليمان وها هو ذا يخطف شيئًا فى فمه ويطير به مسرعًا كأنه فاز بالمطلب الذى كان يقصده. فما ذلك الشىء الذى خطفه؟ وجرى كالمخبول إلى داخل الخزانة فوجد بها عددًا عظيمًا من قماقم نحاسية علاها الصدأ.

فصاح فى يأس: أهذا كنز سليمان؟

وجثم اليأس على قلبه لأنه لم يدر ماذا يصنع الطائر الأسود المشؤوم بذلك القمقم الذى اختطفه فى فمه وطار به إلى السماء.

وعاد كريم الدين تلك الليلة إلى القصر مهمومًا، ولم يطاوعه النوم عندما أراده. وكان يعيد لنفسه دائمًا هذا السؤال: ماذا يا ترى يفعل الطائر المشؤوم بالقمقم الذى اختطفه؟



١٣

ساورت الهواجس كريم الدين فى مَسائه وصباحه، وكان ضميره يُعذبه فى كل دقة من دقات قلبه، لأنه أخلف وعده للملك سومو ولأخته ميروت. وذهب مع خياله يتصور الكوارث التى يمكن أن يوقعها الطائر الأسود بشعب سفروت بسرقة هذا القمقم من كنز سليمان. ولم يدر كيف يستطيع أن يقابل أخته ميروت إذا عادت من البحر، ولا كيف يظهر وجهه للملك سومو الذى رحب به وأدخله إلى قصره، وجعله موضع الإكرام فى كل مكان.

وخرج فى الصباح يجر رجليه فى ممرات القصر، وكان كل ركن فيه يذكره بعطف أخته ميروت وأمها وأبيها، وبالأيام السعيدة التى قضاها فى ضيافتهم. وعادت إليه الرغبة فى مفارقة الجزيرة قبل أن يحل موعد الصعود من البحر، حتى لا تقع عينه مرة أخرى فى عين أحد من الذين أكرموه.

وخرج يسير فى أنحاء الجزيرة كأنه يودعها، فعرج على العيون الحلوة التى طالما روّى ظمأه من مائها، ثم ذهب إلى الكهوف الوردية اللون، وإلى البحيرة الهادئة ذات المياه الصافية الزرقاء، ونزل إلى الشاطئ وتمتع ساعة بالسباحة فى مياه البحر ذات الأمواج المتراقصة، ولم ينس أن يودّع ميروت فاستمع حيناً إلى صوتها، ورآها وهى واقفة تحت الماء بقرب الشاطئ تنظر إلى أعلى متوقعة أنه سيذهب للنظر إليها فى عين الكشف وقضى أكثر يومه فى إشباع نفسه من محاسن تلك الأرض التى عزم على مفارقتها.

ولما مالت الشمس نحو الغرب ذهب إلى كهف خزائن المؤونة مصممًا على أن يأخذ بساطًا يسافر فوقه إلى بغداد مهما كانت الأخطار التى يتعرض لها. فكل الأخطار كانت أهون عنده من التعرض لمقابلة ميروت وأهلها وقومها. ولكنه عندما مد البساط على أرض البستان وهم بركوبه وقف مترددًا، إذ خطر له خاطر جديد. وخيل إليه أن هناك شخصًا يهمس فى أذنه قائلًا: «ما الفائدة من عودتك إلى بغداد كما خرجت منها فقيرًا؟ لماذا لا تحمل معك بعض هذه الجواهر التى تغطى سطح الجزيرة، وبعض هذا الذهب الذى يملأ تجاويف أرضها؟ بل لماذا لا تأخذ معك بعض هذه الآلات العجيبة التى لم تقع عين أحد فى بغداد أو غير بغداد على شىء مثلها؟».

ولكنه مع ذلك وقف مدة طويلة لا يجرؤ على طاعة هذا الوسواس الذى يهمس فى أذنه. فلم يكن من السهل عليه أن يرتكب عملا مثل هذا لا يقل عن السرقة، بل هو سرقة لا شك فيها. وخطرت له صورة أخته ميروت فغمره العرق، وشعر بانقباض شديد فى صدره، وهم بركوب البساط لكى يبعد سريعًا عن تلك الأرض وما فيها من جواهر وذهب وآلات عجيبة، حتى لا يتغلب عليه شيطان الإغراء فيجعله عرضة لاحتقار أخته ميروت. ولكن الإغراء كان أشد مما يقوى عليه، فسمع كأن الشخص الذى يهمس فى أذنه يقول له: «ماذا يضرّ ميروت إذا أخذتَ بعض هذه الجواهر؟ إنما هى حصى ملقى فوق الأرض. وما الذهب هنا إلا تراب تنمو عليه الحشائش. ولن تحس ميروت شيئًا إذا أخذت بعض هذه الآلات التى وهبتها لك قبل نزولها إلى البحر، لأنها وهبتها لك عن رضى».

فمازال كريم الدين يتردد زمنًا طويلًا بين وسواس الإغراء وبين صوت

الضمير، حتى ضعفت نفسه فعزم على أن يعود إلى بغداد إذا عاد إليها غنيًّا قويًّا، ولكنه أراد أن يخفف من شعوره بالجريمة فأخذ ورقة وقلمًا، وخدش فى يده خدشًا صغيرًا وأخذ يكتب بدمه خطابًا لأخته ميروت عازمًا على أن يتركه لها فى مخدعها حتى تقرأه إذا عادت إلى القصر لعلها تغفر له غلطته.

وبدأ الخطاب هكذا:

«أختى العزيزة. أكتب إليك بدمى لأظهر لك مقدار ألمى».

ثم وصف لها حاله باختصار، وما كان منه مع الطائر الأسود، وما عزم عليه من السفر، وذكر لها كل ما ينوى أن يأخذه معه من جواهر وذهب وآلات، طالبًا منها أن تهب ذلك كله له وتعفو عن أخذه قبل أن يستأذنها.

ثم ختم الخطاب قائلا:

«وأنا واثق من أن نفسك الكريمة سوف تعفو عن الأخ الذى يحبك كما لم يحب أحدًا فى الحياة: كريم الدين».

ثم وضع الخطاب فى جيبه حتى يفرغ من استعداده للسفر. وذهب بعد هذا إلى شاطئ البحيرة فاختار من الجواهر أحسنها وأكبرها حجمًا وأكثرها بريقًا، ثم ملأ كيسًا كبيرًا من تبر الذهب، وجمع الآلات التى وهبتها له ميروت، ووضع ذلك كله على البساط.

ولكنه عندما همّ بالركوب تذكر أنه لم يأخذ معه قمقمًا من كنز سليمان فوقف مترددًا مرة أخرى لأنه كان لا يعرف فائدته، ولا يدرى أهو آلة تفيد أم هو آلة مدمّرة مهلكة. ولكنه سمع صوتًا يهمس فى أذنه مرة ثالثة: «إن فى بغداد كثيرًا من العلماء والمنجمين والعارفين بالسحر وأسرار الجن، وهم بلا شك يقدرون على مساعدتك فى معرفة سرّ القمقم. وليس ينبغى لك أن تعود إلى بغداد بغير أن تأخذ معك قطعة من كنز سليمان العظيم،



الذى سخر الإنس والجن بفضل الأسرار التى يحتويها ذلك الكنز».

فاتجه نحو الخزانة التى تحوى كنز سليمان ليأخذ معه قمقمًا منها، ولكنه ما كاد يسير خطوات حتى سمع صوت انفجار عظيم، وأحس الأرض تهتز تحت قدميه كأن زلزالا عظيما يمزق جوف الصخور التى تحته. فأسرع خارجًا مخافة أن يُهدَم الكهف عليه، ونزل على سفح الجبل وكانت الهزات تتوالى وأصوات الانفجار تتلاحق. ورأى بروقًا خاطفة تلمع فى السماء فى كل الجهات وعواصف شديدة تثور فى الهواء. فارتجف واستولى عليه الذهول، ولم يدر ماذا يصنع ولا إلى أين يتجه. فانحدر متجهًا نحو شاطئ البحر لعله يجد هناك منجى من الهلاك.

وكان فى كل خُطوة يخطوها يحس طعنة ألم شديدة فى قلبه، لأنه رأى الجزيرة تتهدم قطعة قطعة، ورأى محاسنها قد ذهبت فى لمحة عين: رأى أشجارها قد احترقت وصارت جذورها السوداء تشبه بقايا أعمدة مُهشمة فى هيكل مخرّب مضت عليه قرون طويلة، ورأى عيونها قد جفت من مائها العذب الصافى وحلت فى مواضعها برَك من الطين العفن الذى يفوح بالروائح الكريهة. ورأى البحيرة قد جفت وصار فى مكانها حوض واسع من أرض سبخة كالحة، ولم يبق على جوانبها جواهر بل صار الحصى كله حجرًا محترقًا مهشمًا. فأخذ يجرى حتى لا يطول عذابه بمنظر هذا الخراب الشامل، فسقط وأصابته جراح فى يديه وركبتيه، ولكنه استمر يجرى كأنه يهرب من شيطان، حتى بلغ شاطئ البحر، وما كان أشد يأسه عندما رأى سطحه صفحة من اللهيب الأزرق، يتدافع مثل الموج الهائج فى العاصفة فتذكر أخته ميروت التى تُقيم تحت سطح البحر، ووقف لحظة مبهوتًا، ثم صاح صيحة ألم عالية وخارت قواه فسقط على الأرض لا يشعر بشىء.

١٤

أفاق كريم الدين من إغمائه وهو ذاهل العقل لا يدرى ما حدث له، ولا يميز شيئًا مما حوله. وكان الليل قد أقبل ونور البدر يضىء الآفاق كما كان فى أول ليلة جاء فيها الجزيرة. ثم استطاع أن يميز الأشياء قليلا قليلا، فرأى أشخاصًا واقفين على مقربة منه. فتفرس فى وجوههم ورأى بينهم أخته ميروت. فعادت إليه الذاكرة فى لمح البصر فصرخ صرخة عالية، ووضع يديه على عينيه قائلا: «ميروت. ميروت. لا تنظرى إلىّ. لقد أجرمت».. ثم قلب وجهه إلى الأرض، وأخذ يبكى بكاءً مرًّا.

فمدت ميروت يدها إلى رأسه، وكان يتقد بالحمى، فمسحته بسائل عطرى من إسفنجة فى يدها، وقالت له فى رفق: هوّن عليك يا أخى. هوّن عليك فلن يقدر أحد على دفع القضاء.

فقال كريم الدين فى وسط شهقاته: لقد أخلفت وعدى.

فقالت ميروت وهى تحاول أن تمسك شعورها: أعرف أنك أطعت الطائر الأسود.

فقام كريم الدين مُتَرنحًا وقال بصوت مختنق: نعم أطعته. أطعت الطائر الأسود المشؤوم.

فساد الصمت حينًا ثم قالت ميروت فى هدوء: هكذا أراد القضاء.

وكان أرمنا الحكيم واقفًا يعبث بأصابعه فى لحيته الصفراء الطويلة،

والحزن يُخيم على وجهه، وإلى جانبه جماعة من سدنة اللهيب المقدس. فاتجهت ميروت إليهم قائلة: أشكركم على ما قدمتم من المساعدة، والآن يمكنكم أن تذهبوا إلى أعمالكم المباركة. لقد زال الخطر عنه.

فأدرك كريم الدين أنهم كانوا جميعًا واقفين حوله ليساعدوا أخته ميروت فى إسعافه والعناية بعلاجه حتى يفيق. وأحسّ بطعنة جديدة فى قلبه الحزين.

ولما غاب أرمنا وأصحابه عن الأنظار ألقى كريم الدين نفسه عند قدمى ميروت وقال فى لوعة: قولى لى ما حدث يا أختاه. ماذا حل بالجزيرة حتى صارت خرابًا فى لحظة واحدة؟ ما الذى أطلق هذه النيران؟ ما الذى دك هذه الأرض؟ ما الذى ذهب بالشجر والماء؟ ما الذى شوّه الألوان الجميلة وأفسد الجواهر السَّنِيَّة؟

فقالت ميروت فى حزن: ألم أحذرك أن تفتح خزائن المؤونة؟ ألم يحذرك أبى من طاعة الطائر الأسود؟

فقال كريم الدين وهو يُمرغ وجهه بالأرض: لقد أجرمت. لقد أجرمت. أهذا كله من الطائر الأسود؟

فقالت ميروت: هذا كله من الطائر الأسود. لقد أطلق الجنىّ من القمقم، أطلق الجنى الجبار الذى سجنه سليمان.

فصاح كريم الدين فى يأس: أختاه. إننى أستحق الموت. لا ترحمينى يا أختاه، أرجوك أن تخلصينى من الحياة، مرى أحد أتباعك أن يخلصنى من الحياة.

فمدت ميروت يدها إلى رأسه فمسحته قائلة: قم أيها الأخ المسكين،



ما فائدة اليأس؟ وماذا يجدينا البكاء؟ تقول إنك تستحق القتل؟ بل إنك جدير بالرحمة يا أخى. أية عدالة تلك التى تعاقب الأشقياء ضحايا القدر؟ نحن لا نقتل فى هذه الأرض، فالحياة أقدس من أن تكون طعمة للعقاب. لو علم الإنسان عظمة الإبداع الذى تنطوى عليه الكائنات الحية لما تجرأ على قتل بعوضة، قم يا أخى فإنى أحب أن أواسيك.

فقام كريم الدين يتطوح، ورأسه يتقد، ونور القمر يبدو مظلمًا أمام عينيه. فأشارت إليه أن يجلس على حجر ويقص عليها ما كان وأخذ يحدثها بما فعله حتى وصف لها الانفجار الذى سمعه، وما كان منه بعد ذلك حتى رأى اللهيب يغطى سطح البحر. ثم قال: فلما رأيت ذلك اللهيب الأزرق يغطى صفحة الماء تذكرتك. نعم تذكرت أنك هناك تحت الماء، وشعرت بالأرض تسقط من تحت قدمى. ولم أدر ماذا حدث حتى رأيتك إلى جانبى منذ لحظة تمسحين رأسى بهذا البلسم العطر.

فتنفست ميروت فى حزن ثم قالت: هكذا جرى القضاء جرى القضاء بأن يكون انتصار الملك «شرويل» على يديك.

فصاح كريم الدين: شرويل؟

فهزت ميروت رأسها وقالت: نعم شرويل ملك جبل السحاب. كان منذ سنين طويلة يتربص بشعب سفروت. وكم بعث جواسيسه، وكم أتى بنفسه لكى يستولى على قمقم المارد الجبار من كنز سليمان. هو يعلم أنه لا يقدر على السيادة والانتصار على شعب سفروت إلا إذا سرق هذا القمقم الجبار. وما كان يقدر على الفوز به لولا أن حكم بذلك القضاء. وما كنت أنت إلا الوسيلة لإنفاذ حكم القضاء. مسكين أنت يا أخى.

فقام كريم الدين حانقًا وقال: لابد من الانتقام. لابد من الانتقام.

فقالت ميروت فى هدوء: هذا مستحيل. وماذا يفيد الانتقام؟ إنه يزيد الشرور شرًّا.

فقال كريم الدين غاضبًا: أكل هذه النكبات لا تثير غضبك؟ ألا يثير هذا الخراب نقمتك؟ أليس هنا قماقم أخرى؟

فقالت ميروت عابسة: كفى الله الشر. كفى الله الشر. إننا لا نحب إخراج المَردة الأخرى من قماقمها. إن المارد إذا خرج لم يخرب أرضًا واحدة، بل يحطم الأرض كلها. سوف يرتد المارد بعد تخريب هذه الجزيرة على أرض شرويل نفسه فيحطمها. سوف يقضى على جبل السحاب وما بعده من الجبال والأودية والسهول إذا لم يعد إلى قمقمه القديم.

فصاح كريم الدين: أيمكن أن يعود؟ أيمكن أن يعود المارد إلى قمقمه القديم؟

فهزت ميروت رأسها فى شك قائلة: قد يكون ذلك مستحيلاً على الأشرار. ولكن الله يُعين أصحاب الخير دائمًا.

ولم يجد كريم الدين فرصة أخرى للسؤال لأن السماء أضاءت فجأة من جهة الشمال، وارتفعت ضجة عالية أعقبتها فرقعة تصمّ الآذان، واهتزّت الأرض هزة شديدة كأن زلزالا شديدًا يحطم جوفها. فتذكر كريم الدين ما حدث من قبل وصاح فى خوف: أهو المارد قد عاد؟

ولكن ميروت لم تجب، لأنها أسرعت تعدو نحو سفح الجبل الشمالى، وكانت تثب فوق الحجارة كأنها عصفورة. ولم يدر كريم الدين ماذا يفعل، وأحس خوفًا شديدًا من البقاء وحده فى هذا الاضطراب المروّع، فأسرع يجرى وراء ميروت نحو سفح الجبل من جهة الشمال.

١٥

بلغت ميروت جانب السفح الشمالى للجبل، وكان كريم الدين لايزال يجرى وراءها متعثرًا فوق الصخور السوداء المحترقة. فلما بلغ آخر الهضبة رأى ميروت واقفة على بعد، وإلى جانبها جماعة من أهل سفروت. فاتجه نحوها حتى بلغ جانب الجرف المطل على البحر، وهو يفكر كيف يستطيع أن يخدم هذه الأخت العزيزة التى غمرته بفضلها وكرم خلقها. كان يحس عند ذلك بأنه مستعد لبذل حياته دفاعًا عنها، وأن يفديها بنفسه إذا هددها خطر من الأخطار التى تُحدق بالجزيرة كلها. وكانت الأرض لاتزال تهتز والفرقعة المفزعة تتوالى، ورأى عمودًا من اللهيب يمتد إلى عنان السماء ويتصل أسفل بسطح البحر فيمسه، وكانت المياه تغلى من حرارته وتَنش نشيشًا عاليًا.

وكان أعلى العمود الملتهب يضىء كالبرق الخاطف، حتى لم يقدر كريم الدين على أن يفتح عينيه عندما أراد النظر إليه. وكان الحكيم أرمنا واقفًا مع أصحابه سدنة اللهيب المقدس ينشدون أناشيد خاشعة، بأصوات جميلة تشبه ترتيل القراء فى الصلاة.

ورأى كريم الدين حمامتين بيضاوين تُحلقان فى الفضاء، وتقتربان من رأس عمود اللهيب، فترَفرفان فى حذر، ثم تبعدان عنه حينًا فتحلقان فى الفضاء، ثم تعودان إليه وترفرفان حوله فى حذر، ولاحظ أن العمود النارىّ أخذ يتضاءل شيئًا فشيئًا، وأن نوره أخذ يقل حتى استطاع أن يفتح عينيه

عند النظر إلى أعلاه. وكانت الحمامتان تقتربان من رأس العمود كلما قلّ بريقه، وتهجمان عليه كأنهما تريدان أن تخمداه بأجنحتهما. ولاحظ كريم الدين أن العمود يضطرب أمام رفرفة أجنحتها ويهبط كأنه يخشع خائفًا منهما. فمازالت الحمامتان ترفرفان حول رأس العمود حينًا ثم تحلقان فى الفضاء حينًا والعمود يقصر ويخمد لهيبه شيئًا بعد شىء حتى صار لا يزيد على لسان فى طول قامة الإنسان، ثم تضاءل حتى صار مثل شعلة صغيرة. وكان كريم الدين منصرفًا إلى ذلك المنظر العجيب، عندما أحس بلمسة على ركبته. فنظر إلى أسفل فرأى ميروت تنظر إليه باسمة وتهمس قائلة: ألا ترى؟

فقال كريم الدين: هذا شىء عجيب لست أدرى ما هو.

فقالت ميروت فى سرور: إنه المارد.

فصاح كريم الدين فى دهشة: أهو هذا؟

فقالت ميروت: هو هذا، ولن يلبث أن يدخل إلى القمقم حيث يبقى إلى ما شاء الله سجينًا.

فقال كريم الدين: وهاتان الحمامتان. ألا يحرقهما المارد؟

فضحكت ميروت وقالت كعادتها: هذا مستحيل. إنهما حمامتان السلام والمحبة.

فلم يفهم كريم الدين قولها، ولكنه لم يستمر فى إلقاء الأسئلة لأنه كان منصرفًا إلى رؤية المارد وكيف يدخل إلى القمقم.

وكان العمود النارى قد صَغر حتى صار مثل نور مصباح صغير، ورأى الحمامتين تهبطان إلى سطح البحر وترفرفان بشدة فوق البقية القليلة من النار، فانطفأت الشعلة فجأة.

فصاحت ميروت وهى تصفق بيديها كطفلة سعيدة: الحمد لله.

فاندفع كريم الدين صائحًا من أعماق قلبه: الحمد لله.

وعَلَت عند ذلك أصوات نشيد عذبة من حلقة سدَنة اللهيب المقدس، وترددت الأصداء فى أنحاء الجبل، حتى خيل إلى كريم الدين أن الحجارة نفسها تشارك فى الغناء. وكانت ميروت تغنى مع الجميع بصوتها الجميل، وكريم الدين يحس أعظم السعادة، وخف عنه الشعور بجريمته.

وارتفعت الحمامتان بعد قليل تحملان قمقمًا فى منقاريهما.

فقال كريم الدين فى لهفة: ألا تَرَيْن يا ميروت؟

فقالت ميروت: إنهما تحملان القمقم إلى أبى.

ولم يلاحظ كريم الدين إلا فى تلك اللحظة أن الملك سومو كان جالسًا على صخرة فى سفح الجبل والتاج فوق رأسه. فصاح عند ذلك: الملك هنا؟

ثم أسرع إلى ظل صخرة يستتر بها حتى لا تقع عليه عين الملك.

وطارت الحمامتان حتى اقتربتا من الملك فهبطتا عنده وألقتا القمقم تحت قدميه. ثم ارتفعتا بعد ذلك فى الجو. وأخذتا تحلقان فى سماء الجزيرة، فتدخلان حينًا إلى الكهوف، وحينًا تغيبان عن الأنظار فتدخلان إلى الأودية وشعاب الجبل، ثم تعودان فتطيران قريبًا من سطح الأرض، حتى كاد يخيل إلى الناظر إليهما أنهما تلمسان الصخور بأجنحتهما. وكانتا كلما اقتربتا من كريم الدين سمع منهما صوتًا جميلا يشبه صوت البلابل. فقال فى نفسه إنهما بلاشك من ملائكة السماء.

واقتربت الحمامتان فى إحدى جولاتهما من كريم الدين حتى صارتا على بُعد ذراع واحدة منه، وهبطتا على الأرض فمستا سطحها بأجنحتهما،

وما كان أشد اندهاشه عند ذلك إذ رأى سطح الأرض يتبدل فجأة ويعود إلى حاله الأولى. عادت الصخور وردية اللون، أو خضراء زبرجدية، أو صفراء كالكهرمان، وعادت الحشائش والأزهار في مثل لمح البصر إلى سابق حياتها ورونقها، ورأى على مقربة منه عينا عادت تتدفق بمائها الصافى، فلم يصدق عينيه وذهب إلى الماء فذاقه ووجد أنه عاد إلى حالته الأولى عذبًا حلوًا يملأ الجسم نشاطًا.

فعاد إليه الأمل بعد اليأس، وشعر فى نفسه برغبة قوية فى البقاء فى تلك الجزيرة العزيزة، وخيل إليه أنه لن يقدر على البعد عنها ولا يمكنه الإقامة فى غيرها. وعزم على أن يسأل ميروت أن تستعطف له الملك ليعفو عن غلطته، حتى يستطيع أن يجرؤ على الإقامة فى الجزيرة.

فذهب إلى المكان الذى ترك فيه ميروت ولكنه لم يجدها. فتلفت حوله متعجبًا لا يعرف أين ذهبت، فلم يجد بقربه أحدًا. لقد اختفى جميع من كان هناك كأنهم طاروا فى السماء أو دخلوا فى باطن الأرض. فسار يبحث وينادى ميروت باسمها فلم يسمع سوى صدى صوته بين الصخور، وكان وهو يسير يرى أن سطح الجزيرة قد عاد كله إلى حالته الأولى فى ألوانه وأزهاره وأشجاره وطيوره بعد أن كان قد احترق وتهشم وقبح منظره.

ومازال فى سيره حتى بلغ جانب البحيرة فرآها تلمع تحت ضوء القمر الساطع، ورأى الحصى الذى حولها يتلألأ بأشعته المتراقصة. ولكنه كان مشغول البال طول الوقت باختفاء ميروت، فأخذ يجرى كالمخبول ويصيح بأعلى صوته: ميروت. ميروت.

ولكن الصدى وحده كان يجيبه كأنه يسخر منه.

وأخيرا اتجه نحو سفح الجبل عازمًا على أن يصعد نحو القصر لعله

يجدها هناك. ولكنه ما كاد يخطو فوق السفح خطوة واحدة حتى رأى أمامه شخصًا يشبه الحكيم أرمنا، إلا أنه كان أبيض اللحية ويمسك فى يده سلاحًا يشبه السيف الصغير.

فسأله عن ميروت، ولكن الرجل لم يجبه بل رفع يده بالسلاح الصغير قائلا فى صرامة: عد من حيث أتيت..

فوقف كريم الدين ينظر إليه حينًا فى ذهول، وقلبه يخفق من الغضب، لأنه لم يتعود أن يلقاه أحد من شعب سفروت بمثل هذا الجفاء، ولكنه ضبط نفسه وقال: أليست ميروت أختى؟

فرفع الشخص يده مرة أخرى وقال: هذا أمر مولاى الملك.

فتراجع كريم الدين إلى الوراء، حتى كاد يقع من المفاجأة، وشعر بالعرق يبلل جسمه، ثم ثار غضبه وصاح: كذبت. إن مولاى الملك لا يأمر بطردى، أنا كريم الدين أخو ميروت.

وهم بصعود الجبل متحديًا. ولكن الشخص رفع يده فى وجهه بالسيف الصغير، فأحس كريم الدين برعدة شديدة تهز جسمه. فوقف فى مكانه ومد يده متوسلا إلى الشخص أن يسمح له برؤية أخته. ولكن جواب الشخص كان فى كل مرة واحدًا: عد من حيث أتيت.

وفى هذه اللحظة رأى أمامه بساطًا من بسط الريح يمتد على سطح الأرض، وأشار الشخص إليه قائلا: قد أمر مولاى الملك أن أعدّ لك هذا البساط ليعود بك إلى بغداد.

فأطرق كريم الدين كاسفًا ودار رأسه فلم يدر ماذا يقول ولا ماذا يفعل. وجعل يفكر فى نفسه: «أهكذا أعود إلى وطنى؟».



وسمع الشخص عند ذلك يقول له: ألا تحب أن تأخذ معك بعض الحصى؟

فخجل كريم الدين خجلا شديدًا، لأنه أحس فى قول الشخص سخرية، وأجاب قائلا فى كبرياء: لست أريد إلا أن أرى ميروت.

فقال الشخص: إذن فاركبَ البساط واذهب.

فنظر إليه كريم الدين فى حيرة وتردد، وجعل يفكر مرة أخرى هل يعود إلى بغداد فى مثل هذه الحال طريدًا خائبًا؟ وهل يعود إليها بيدين فارغتين بعد أن قاسى ما قاسى وعانى ما عانى من الآلام؟ وهل يرجع إلى حياة الفقر والشقاء بعد حياة النعيم التى تعوّدها؟

ورفع رأسه بعد حين قائلا: إذا لم يكن بد من رحيلى فلآخذ معى شيئًا أتذكر به ميروت.

فتبسم الشخص قائلا: خذ ما شئت من هذا الحصى.

فكاد كريم الدين يغضب من نغمة الاحتقار التى تختفى فى كلام ذلك الشخص العجيب، وهم أن يرفض بكبرياء أن يأخذ شيئًا. ولكن تذكر أن هذه هى فرصته الأخيرة فى الجزيرة، وأن المقادير لن تسمح له بالذهاب مرة أخرى إلى جزيرة فيها الجواهر ملقاة على الأرض كالحصى. فبلع غضبه وذهب نحو البحيرة ليجمع ما يقدر أن يحمله معه من حصاها.

ولما أخذ ما يكفيه عاد فألقاه على البساط، ثم نظر إلى الشخص قائلا: ألا آخذ هذه الآلات معى؟ إنها هدية من أختى.

فقال الشخص: هى لك إذا شئت.

فجمع كريم الدين تلك الآلات التى وهبتها له ميروت، ووضعها على

البساط، ثم تذكر أنه لم يأخذ قمقمًا فقال: ألا آخذ معى قمقمًا؟

فصاح الشخص فى جفاء: كفى سخفًا أيها الإنسان.

وكانت لهجة صارمة لم يتعود كريم الدين سماع مثلها، فنظر إليه وأراد أن ينتقم منه ولو بكلمة فقال: وهل تأمن أن أشتمك كما تشتمنى؟

فقال الشخص فى لهجة الاعتذار: لم أقصد أن أشتمك يا سيدى فعفوًا. لقد أزعجتنى بذكر القمقم، ولكنك معذور لأنك تجهله. إنك قد تستطيع أيها الإنسان أن تطلق منه المارد الجبار لكى تُدمر وتُخرب وتُفسد، ولكنك لن تقدر على أن ترد المارد إلى مكانه. فإذا انطلق مرة فإنه سوف يهلك الأرض كلها، ثم يعود إلى من أطلقه فيضمه إلى الهلاك.

فقال كريم الدين فى عناد: ولم لا آخذ معى حمامتين تدخلانه إلى القمقم؟

فقال الشخص: إنهما لا تصاحبان الإنسان.

فقال كريم الدين: أعدك بالمحافظة عليهما. أعدك بشرفى.

فقهقه الشخص ضاحكًا حتى كاد يقع ثم قال: إنك تسرع بالوعد يا فتى، ولكنك ستذبحهما إذا جعت.

فلم يملك كريم الدين إلا أن يركب، ولكنه تذكر خطابه الذى كتبه لأخته ميروت. فأخذ يبحث عنه ليرسله إليها حتى وجده فى قاع جيبه فقدمه إلى الشخص قائلا: هل لك أن توصل هذا إلى ميروت؟ لقد كتبته بدمى.

ونزلت الدموع من عينى كريم الدين، فأشفق عليه الشخص وأخذ الخطاب منه ثم فرك أهداب البساط قائلا: أوصله إلى بغداد.

فطار البساط يسبح فوق الهواء، وصغرت الأرض حتى صارت الجزيرة مثل قدر الكف فى عين كريم الدين، واتجه البساط مسرعًا يمر فوق الجبال والبحار وكريم الدين راقد فوقه متمسك بأهدابه.

ولما عاد الفتى إلى وطنه اشترى ضياعًا كثيرة وقصورًا عظيمة، واقتنى الخيل العربية الأصيلة، وملك العبيد والجوارى من بيض وسود، وصار أكبر رجل فى بغداد بعد الخليفة.

وبحث عن أصدقائه جميعًا فوهب لهم مالا جزيلا أغناهم، ولم ينس أن يبنى لخالته قصرًا فى وسط بستان واسع على ضفة دجلة فى الرصافة. ولكنه لم يعثر على أثر يَدُله على الحاج خليفة البصرى.

وكان مع كل ما أحاط به من الغنى والنعيم لا ينسى ميروت فى ليل ولا فى نهار، وكان فى ليالى القمر يَعمد دائمًا إلى أذن السمع ليسمع صوتها وهى تغنى مع صاحباتها عند البحيرة الصافية الزرقاء.

رقم الإيداع	٢٠٠٥/٢١٧٠٢
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6871-2

٧/٢٠٠٥/٤٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)